A-PDF Merger DEMO : Purchase from www.A-PDF.com to remove the watermark

دليل التربية الأسرية

«٧٥ ملحظاً تربوياً للأبوين»

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الرابعة

(ΦΓΥΤ/Υ/Φγ)

٣٠٦.٨٧

بكار، عبد الكريم

دليل التربية الأسرية/ عبد الكريم بكار. عمان: دار الأعلام للنشر والتوزيع، ٢٠١٠.

(٢٢٢) ص.

ر.أ. ٢٨/ ١/ ٢٠١٠

الواصفات/ الأسرة/ / العلاقات الاجتماعية/ / الآداب الاجتماعية/

- أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
- يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN: ٩٧٨-٩٩٥٧-٤٧٩-٣٥-٠ (ردمك):

دار الأعلام

الأردن – عمان – العبدلي – مركز جوهرة القدس – الطابق ٢ – مكتب ٦٠٥

تلفاكس ٤٦٥٧٤٦٨ – ٠٦ ص.ب: ٩٢٧٥٦٣ عمان ١١١٩٠ الأردن

E-mail: al_aalam@yahoo.com

دليل التربية الأسرية

«٧٥ ملحظاً تربوياً للأبوين»

تأليف

أ. د عبد الكريم بكّار

دار الإعلام

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فقد كثر الحديث في أيامنا هذه عن أهمية التربية في إعداد الناشئة للعيش في زمان كثير المتطلبات، كثير المغريات، متزايد التحديات، ويتم التركيز على نحو أخص على ضرورة تدعيم الوظيفة التربوية للأسرة، بوصف البيت هو الحصن الأخير الذي ما زال لأهله نوع من السيطرة عليه. وهذا التوجه نحو تفعيل وظيفة الأسرة توجه صحيح ولا غبار عليه؛ ولكن لا ينبغي أن نتوقع أننا سنتمكن من حل كل مشكلاتنا عن طريق التربية، وليس من المنطق أن نطلب منها ذلك، ولكن لا ريب أن البيوت حين تقوم بواجبها، فإنها تقدم الكثير من الشروط الجيدة والكثير من الأسس التي تمكننا من النهوض ومعالجة أشكال المعاناة التي يعاني منها السواد الأعظم من المسلمين.

إن موضوع التربية موضوع متجدد، حيث إن كل أشكال التقدم التقني والتطور الحضاري، تنعكس على المربي، فتغير من رؤاه وأساليبه، وتنعكس على الناشئة، فتغيّر من تطلعاتهم وسلوكاتهم، وتحدد نوع استجاباتهم للجهود التربوية؛ ولهذا فإن كل الأمم تواصل مساعيها في معالجة مسائل التربية

الشائكة، وما زالت البحوث والدراسات والكتب التربوية في زيادة مطردة، ولكن من المؤسف أن المشكلات التربوية هي الأخرى في حالة من النمو والتضخم، ومن المؤكد أن زيادة البحوث التربوية، ليست هي السبب في زيادة مشكلات الأطفال والمراهقين، والتوقف عن الكتابة في شؤون التربية، سيجعل الأمور أكثر سوءاً مما هي عليه الآن. وعلى كل حال فهناك إجماع على أن البشرية تتقدم تقنياً على نحو مطرد، لكن التقدم الأخلاقي والسلوكي قد يكون بطيئاً أو معدوماً، بل إن بعض جوانب السلوك تشهد ما يشبه الانهيار، فالانتحار وحوادث الطلاق وإدمان المخدرات، والغش في المعاملات والمنتجات، ومخالفة النظم السارية... كل هذه الظواهر تتسع دوائرها في معظم أنحاء العالم. وهذه الوضعية الصعبة أدت إلى أن يهدم التقدم التقني المذهل في مجال الاتصال بالبيئات التربوية القديمة، حيث صارت الأمة الإسلامية تربي في بيئات مفتوحة وملوثة، فقد فتح الغرب والعالم الصناعي عامة كل أبواب غرف نومه على مصاريعها، وجعل كل ما كان فيها معدوداً من قبيل الأسرار، منشوراً أمام أعين الكبار والصغار على نحو مقرف ومخجل، وصار كثير من المربين في حيرة من أمره حيث صار العثور على القرار التربوي الصحيح عسيراً!.

إننا حين نربي نتعامل مع إنسان يتمتع بالعنصر الروحي والإرادة الحرة، وهو إلى جانب ما ورثه عن أبويه من خصائص ذهنية ونفسية، يعيش في بيئة ذات معطيات محددة، كما أنه تعرض لأحداث حياة خاصة، وهذا كله يكاد يجعل كل واحد من الناشئة أشبه بحالة خاصة أو مخطوطة فريدة، يحتاج التعامل معها إلى فقه خاص. وكل النصائح والوصايا والمبادئ التربوية التي نسمعها أو نقرؤها تظل غير كافية لنجاحنا في مهمتنا، ولا بد لنا معها من الاجتهاد والتأمل وحسن التصرف... ولا ينبغي لنا بعد أن نثقف أنفسنا ونبذل كل جهودنا أن نتوقع الحصول على نتائج قريبة وحاسمة، لأن التربية تتم في وسط مجموعة من النظم المفتوحة، ولا ندري على وجه الدقة نتائج تفاعل جهودنا التربوية مع تلك النظم؛ ولذا فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام – وهم المؤيدون بالوحي- كانوا يدعون الله – تعالى – أن يصلح لهم ذرياتهم؛ فلنكثر من دعاء الله – تعالى – لأبنائنا وطلابنا بالسداد والفلاح حيث تقصر أسبابنا عن بلوغ ما نريد.

مهما أعطينا التربية من جهد ووقت، فإن ما نتوقع الحصول عليه هو أكبر بكثير مما نبذله، وذلك لأن الطفل حين يولد تكون إنسانيته عبارة عن استعدادات ليس أكثر، ومن خلال التربية يمتلك مقومات الإنسانية: الفكر

واللغة والمشاعر ومعايير الخطأ والصواب؛ ولذا فإن ولد الإنسان لا يصبح إنساناً إلا إذا رباه إنسان. وإن الخطوط العميقة في شخصية الطفل ترسم في السنوات الست الأولى من عمره، والسنوات الثلاث الأولى منها هي بمثابة ولادة ثانية له. ومن هنا يأتي شرف المهمة التي تقوم بها الأم خاصة والأبوان عامة في تربية الطفل وتنشئته.

إن مهمة الأسرة في عملها تزداد صعوبة يوماً بعد يوم، حيث إن العولمة تهمش سلطات الأسرة والمدرسة والمجتمع بما تشيعه من التحريض على التمرد على الأعراف، وبما تغري به من توسيع دوائر الخيار الشخصي والحرية الفردية، ولكن ليس أمامنا أي خيار غير الاستمرار في جهودنا التربوية وتحسين ظروف عملنا مهما وجدنا إلى ذلك سبيلاً.

إن أمة الإسلام لا تملك الكثير من المال والثروات والإمكانات المادية، ولا الكثير من التقدم العلمي والتقني، لكنها تملك شيئين:

المنهج الرباني الأقوم الذي أكرمنا الله به.

والعنصر البشري المتعاظم، حيث قارب المسلمونأن يكونوا خُمْس، أو ربع سكان الأرض.

وهذه العشرات من الملايين التي تدفع بها الأرحام سنوياً بحاجة إلى أن

تستوعب نفسياً واجتماعياً، كما أنها بحاجة إلى تربية وتوجيه وتأهيل للعيش في زمان مفعم بالتحديات الجسام؛ وإذا لم نحسن القيام بذلك صار أبناؤنا أشبه بجيش حُشِر في أرض ضيقة دون أن ينال حظه من التدريب والتسليح، فإنه بذلك يتعرض للتدمير الشامل.

في اعتقادي أن الأبوين لا يستطيعان من غير التثقيف التربوي الملائم أن يعرفا ما هو طبيعي لدى أبنائهما مما هو غير طبيعي، مما يجعلهما يجزعان من أمور لا تستحق الجزع، ويغفلان عن أمور كان ينبغي أن تقضَّ مضاجعهما.

إنني أشعر أن الوعي التربوي لدينا يتحسن، ولكن ما زال بيننا وبين المستوى المنشود مسافات شاسعة. وقد حاولت هنا أن أقدم للأبوين خمسة وسبعين ملحظاً تربوياً متنوعة وشاملة لمختلف جوانب المهمة التربوية، كما حاولت أن أوجد فيما بينها نوعاً من الترتيب الداخلي راجياً من الله – تعالى – أن تشكل هذه الملاحظ إسهاماً متواضعاً في رفع سوية الوعي التربوي لدى المسلم المعاصر؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه، وهو حسبي ونعم الوكيل.

المؤلف

أبها ١٥/ ١٢/ ١٤٢١

١. أولادنا بحاجة إلى تربية غير تربيتنا

الهدف الشامل من وراء الجهود التربوية الحثيثة التي يبذلها الأبوان وغيرهما، هو إعداد الطفل ليحيا حياة طيبة تليق بالإنسان المسلم. ولن يحيا تلك الحياة الطيبة إلا إذا كان صالحاً في خلقه وسلوكه وعلاقاته، وإلا إذا كان ناجحاً في أعماله التي يثبت من خلالها ذاته، ويكسب منها رزقه.

ونحن نشهد اليوم تغيراً عاصفاً في كل جانب من جوانب الحياة، ومع هذه التغيرات الشاملة سوف تختلف أشياء كثيرة، أهمها: الفرص المتاحة والتحديات الجديدة. ومواجهة التحديات والاستفادة من الفرص، تتطلبان من أبنائنا تصورات واستعدادات جديدة، مما يتطلب وجود تربية جديدة أيضاً.

لا يصح لنا أولاً أن نفترض أن كل الأساليب التربوية التي اتبعها أهلونا ومعلمونا في تربيتنا كانت صحيحة، فهم قد اجتهدوا وفعلوا كل أو بعض ما يستطيعون فعله، ولكن ليس هناك أية ضمانة لصواب ما فعلوه.

وإذا افترضنا أنهم اتبعوا أفضل الأساليب في تربيتنا، فذلك لا يعني أن أساليبهم تلك تصلح لكل الأزمان وكل الأجيال. وإيماننا بقدرة الوعي على

التقدم يبيح لنا أن ننتظر من الجيل الحالي تربية لأبنائه أفضل من التربية التي تلقاها من أسلافه، وذلك لأن من المفترض أن نكون قد استفدنا من خبراتهم، وأدركنا مواطن الخلل لديهم، فاتسعت دائرة الرؤية لدينا، كما تتسع لدى من يقف على كتفي عملاق.

البيئات الجديدة تفرض نعومة في التعامل وثقة بالذات وقدرة على ضبط النفس، وفاعلية في الأداء ودقة في الفهم، ومبادرة إلى الخير أكبر وأعظم مما كان سائداً لدى الجيل السابق لنا؛ وغرس هذه المعاني وتفعيلها يحتاج إلى خبرات وأساليب تربوية جديدة.

سوف نخسر كثيراً إذا اتخذنا من التربية أداة لتوريث أبنائنا كل ما ورثناه عن أسلافنا دون تمحيص أو تدقيق أو اختيار؛ والتاريخ شاهد على تحطم الأمم التي اتخذت من التربية أداة لتكريس الأمر الواقع دون أدنى نقد أو تغيير أو تطوير.

إن أولادنا خلقوا ليعيشوا في زمان غير زماننا، ولذا فإنهم بحاجة إلى تربية غير تربيتنا.

٢. تقبل الأطفال على ما هم عليه

يحبنا أطفالنا لأننا نقدم لهم حباً غير مشروط، وهذا ما علينا أن نفعله. فالأولاد هدية من الله -تعالى- وعلينا أن نتقبل تلك الهدية مهما كان شأنها؛ وقد يرزق الإنسان بطفل فيه عيب خَلْقي أو ضعيف الذكاء، أو يملك استعداداً قوياً ليكون بديناً، أو يكون قصيراً قميئاً... في كل هذه الأحوال علينا أن نبدي مشاعر الاغتباط والرضا. كثيراً ما يقلق الآباء والأمهات من أمور لا تدعو إلى القلق، كأن يروا طفلهم قد تأخر في المشي أو في النطق، أو يروه منطوياً على نفسه، ثم تثبت لهم الأيام أن قلقهم كان في غير موضعه، وأن ما كانوا يخشونه من عيوب في ابنهم لم يكن أكثر من وهم. إنني أدعو كل الآباء والأمهات إلى أن يمتلكوا شيئاً من الثقافة التربوية التي تمكنهم من معرفة خصائص النمو في كل مرحلة عمرية من حياة أبنائهم، حتى لا يقعوا فريسة للأوهام والتخيلات. وتلك المعرفة وحدها هي التي تجعل ردود أفعالهم على أوضاع أبنائهم وأحوالهم راشدة ومتزنة ويكفي لذلك أن يكون في البيت مرجع واحد جيد في مسائل تربية الطفل.

ليست وصيتي بقبول الطفل على ما هو عليه نابعة من أسباب أخلاقية أو

عاطفية فحسب، وإنما هناك نقطة عملية مهمة للطفل، وهي أن الطفل الذي يتقبله أهله بصرف النظر عما فيه من نواقص وعيوب ينشأ واثقاً من نفسه معتزاً بذاته، سعيداً في حياته – على الرغم مما تسببه له عيوبه من معاناة– ويحمل الطفل الذي تقبله أهله بالإضافة إلى ذلك روحاً معنوية تمكنه من الإفادة من جميع طاقاته، ومن اغتنام كل الفرص التي تعرض له إلى أقصى حد ممكن؛ ويملك إلى جانب كل هذا طاقة كبيرة على مواجهة التحديات التي تواجهه. إن قبولنا للطفل على علاته يوفر له دعماً اجتماعياً هو بأمس الحاجة إليه، وإن ذلك الدعم يوفر له من الأمن والثقة أكثر بكثير مما نتصور. وعلى العكس من كل هذا يكون الطفل الذي يذكّره أهله بعيوبه ونواحي قصوره، أو يشعرونه أنه يشكل عبئاً عليهم، إنهم بذلك يجعلون آثار علته العقلية أو الجسدية مضاعفة عليه أضعافاً عديدة.

تعالوا كي ننسى العيوب في أطفالنا، ونركز على تنمية نقاط القوة، فيعوّضهم الخالق – جل وعلا– بخيراتها وثمراتها عن كل ما قد يكونون فقدوه في جانب من جوانب شخصيتهم.

٣. يظل ما تقوله البيئة الاجتماعية مهماً

الآباء والأمهات والمعلمون يبذلون جهوداً مضنية في سبيل الارتقاء بمن يقومون على تربيتهم، لكنهم كثيراً ما يشعرون بالمرارة لضآلة النتائج التي يحصلون عليها؛ وما ذلك إلا لأن البيوت والمدارس لا تستطيع – مهما حرصت– أن تنفرد بالتوجيه والتأثير، فللمجتمع كلمة في التربية لا تجوز الاستهانة بها.

ولا يعزب عن البال أن أوضاع مجتمعاتنا لا تتطابق دائماً مع أوضاع أسرنا. وفي زماننا هذه صارت البيئة الاجتماعية غير آمنة بسبب الوافدات الثقافية المخيفة التي تفد إلينا عن طريق القنوات الفضائية وشبكات المعلومات والوسائل الإعلامية المختلفة. إن الأطفال لا يتلقون ما نقوله لهم على نحو مباشر، وإنما يرمزونه ويطعمونه بنكهة البيئة الاجتماعية التي يعيشون فيها، فإذا حثثنا أحد الأبناء على عدم الخروج إلى الشارع، وكان معظم أقرانه يلعبون فيه، فإنه سيتضايق مما نقوله، وسيرى في ذلك نوعاً من التشدد غير المفهوم. وإذا حثثناه على الاجتهاد، وكان من يخالطهم من أبناء الأعمام والعمات... كُسالى فإنه سيرى في حثنا له نوعاً من المثالية، ونوعاً من

الاهتمام الذي يصل إلى حد التسلط وهكذا...

هذا كله يعني أن على الأبوين أن يتحسسا مواقع كلامهما لدى الأبناء وأن يكثفا الحوار معهم، وأن يوفرا لهم المناخ الذي ينمي فيهم معاني الخير والاستقامة والجدية، وعليهما إلى جانب ذلك السعي إلى إبعادهم عن قرناء السوء. إن مشكلة البيئات السيئة المحطمة أنها تقدم للأطفال نماذج سيئة، وتجعل طموحاتهم محدودة، وتطلعاتهم متواضعة، وبالتالي فإن كثيراً من جهود المربين يذهب أدراج الرياح. وهذا كله يؤكد أن مشروع التربية يجب أن يكون مشروع أمة، وأن تحسين المناخ العام يظل من مسؤوليات أبناء المجتمع جميعاً. وما نقدمه لمجتمعاتنا من معروف، وما نشيعه فيها من خير وإحسان سنقطف ثمرته في الدنيا قبل الآخرة في صورة معونة على تنشئة الأبناء على الفضيلة والتفوق والنجاح. كما يؤكد هذا المعنى أن الذين يبثون في صفوف الناس معاني التحلل والانحراف والنماذج المغشوشة سوف يجنون ذلك في صورة انعكاسات اجتماعية سيئة على أبنائهم وذراريهم.

٤. ليس الأب جابياً وليست الأم شغالة

إن شعورنا بمسؤولياتنا هو الذي يوجه في النهاية سلوكاتنا، وهو الذي يحدد نوعية ردود أفعالنا، وإن مهمة الوالد لا تقتصر على أن ينصب من الصباح حتى المساء، أو أن يضرب في الأرض من أجل الحصول على ما ينفقه على بيته، كما لا تقتصر مهمة الأم على ترتيب البيت وتنظيف الثياب وإعداد الطعام... فهذه المهام الكريمة التي يقوم بها الآباء والأمهات، لا ينبغي أن تستغرق كل أوقاتهم وجهودهم حيث إن ذلك لا يُعد سوى أجزاء مهمة من مكونات البيئة التربوية الجيدة. أما العمل التربوي فإنه شيء آخر.

إننا ورثنا عن الأجيال السابقة مسألة إعطاء جل اهتمامنا للأمور التي ذكرناها؛ وإذا نظرنا في البرنامج اليومي للسواد الأعظم من الآباء وجدنا أنهم يقضون ساعات طويلة خارج المنزل، وحين يعود الواحد منهم من عمله يعود منهكاً، وقد استُنفذت طاقاته النفسية؛ وكثير منهم يعودون بعد أن يكون الأطفال الصغار قد استغرقوا في النوم، كما أن كثيراً منهم يذهبون إلى أعمالهم قبل أن يستيقظ أبناؤهم! ولا يصح أن نتجاهل صعوبة كسب العيش بالنسبة إلى معظم الناس، كما لا يصح أن نستهين بالثواب العظيم الذي ينتظر

الكادحين في سبيل تحصيل لقمة العيش – إذا رزقوا الاحتساب – لكن حين نعلم أن توجيهنا لأبنائنا وإشرافنا عليهم هو الأساس وهو المحور، فإننا سنبحث عن الوقت الذي نجلس فيه معهم. وشيء جميل أن يكون للأسرة سويعات في الأسبوع، ويوم في الشهر، يخرج فيه الجميع من المنزل، وينفضون أيديهم من كل الأعمال اليومية الرتيبة، ليتفرغوا للتحدث عن شؤونهم المختلفة، وليتذاكروا فيما عليهم أن يعملوه في المستقبل، وليوجه الآباء والأمهات إلى أبنائهم ما لديهم من إرشادات ترتقي بهم.

في المقابل فإننا نجد أن كثيراً من الأمهات يتحدثن مع بناتهن في كل شيء إلا فيما يجعل منهن زوجات صالحات، وأمهات فاضلات في المستقبل! وإني أتمنى أن تحتل هذه المسألة من اهتمام الأمهات المسلمات ربع ما يحتله الحديث في شؤون الطبخ واللباس والحفلات والمناسبات...

وحين يكون في البيت (شغالة) تكفي المرأة كثيراً من شؤون البيت فإن كثيراً من الأمهات لا يندفعن نحو استرجاع دورهن الأساسي في التربية والتوجيه، وإنما يستسلمن للضجر والملل، ويبحثن عن شيء يشغلن به أوقاتهن، حيث حلَّت الشغالة محلها، وظلت هي حائرة في أمرها! لن يتغير الحال ما لم نؤمن بقوة أن إرشاد الأبوين لأبنائهم لما يرتقي بهم هو الوظيفة

الأساسية لهما، وأن ما عدا ذلك لا يعدو أن يكون شيئاً مكملاً وأن الأموال التي يكدسها بعض الآباء لتكون ذخراً لأبنائهم قد تكون هي السبب في ضياعهم.

يا أيها الآباء ويا أيتها الأمهات أنتم مربون ومرشدون قبل كل شيء

٥. لا بديل عن سياسة العمل على المدى الطويل

التربية كالحرب تحتاج إلى الرجل المكيث، وعلاقة المربي مع من يربيه تشبه حالة النزال بين المتعاركين؛ واستعجال الثمرات يضر ولا ينفع. إن فترة الطفولة لدى الطفل طويلة نسبياً إذا ما قارناها بفترة الطفولة لدى الحيوان؛ فإذا قلنا: إن متوسط عمر الإنسان ستون سنة، فإن فترة الطفولة لديه تستغرق نحواً من ربع هذه المدة، أما القط – مثلاً – فإن متوسط عمره نحو من ثماني سنوات، لكن مدة طفولته ثلاثة أشهر، أي تُمُن طفولة الإنسان. وطول فترة الطفولة هذه تعني طول فترة معاناة الأبوين، كما تعني أن ما يُنتظر من وراء التربية عظيم جداً.

ومن يقول إن الإنسان إذا بلغ الحلم استغنى عن التربية؟

الحقيقة أن البشرية تتعلم باستمرار، وسيظل المرء بحاجة إلى نوع من التوجيه فترة طويلة من الزمان، قد تمتد حتى سن الخامسة والعشرين. ويعلمنا القرآن الكريم أن النتائج العظيمة تحتاج إلى صبر، وقد أخبرنا – جل وعلا – أن بعض أصفيائه لم يبلغوا الإمامة في الدين إلا بالصبر والإيمان الحاسم، فقال – سبحانه –: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا

يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] وقال – سبحانه – : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه: ١٣٢]، إن الله حثنا على الصبر في أمر الصلاة، لأننا نريد أن نجعلها جزءاً من السلوك اليومي لمن نقوم بتربيتهم؛ وهكذا في الحقيقة كل ما يتعلق بالأخلاق والسلوك تحتاج برمجته في شخصية الإنسان إلى وقت ولا سيما أن الطفل، قد لا يستوعب ما نقوله له على الوجه الذي نريده، والقيم والمثل لا تكون واضحة في ذهنه مثل وضوحها في أذهاننا؛ ولذا فالانتكاس والنكوص في التربية وارد دائماً.

إن رفع صوتنا على الطفل أو ضربه لن يخلصه من عادة الكذب، أو عادة توسيخ ثيابه أو مص أصابعه، ولا بد من متابعة متأنية قد تستغرق سنوات وسنوات. وإن كثيراً من معاناتنا مع الأطفال ينبع من أن عنصر المرونة لديهم ليس مكتملاً ولذا فمهما كانت طبيعة الابن ممتازة وطيعة، ومهما كان المربي ذكياً ومثقفاً، ومهما كانت البيئة التي نربي فيها جيدة وملائمة، فإن الكثير من المشاق ينتظرنا في الطريق، ولكن الأجر على الله تعالى والثواب على قدر المشقة، فلنوطن أنفسنا على ذلك.

٦. لن يكون من الصواب أن نظهر أمام الطفل بمظهر المعصوم

ليس أجمل من أن ينظر الطفل في أسرته، فيرى في أبيه وأمه وإخوته بعض السمو الذي يتطلع إليه. وليس أجمل من أن يتشبع الطفل بأحاسيس الإعجاب والاحترام نحو من يقومون على تربيته وتوجيهه، ولكن شريطة أن يكون طبيعياً غير متصنع ولا متكلف. إذا نظرنا في حياتنا العامة وجدنا أن لدينا خوفاً شديداً من الوضوح وتسليط الأضواء، وهناك محاولات دائبة من قبل كثيرين منا لإخفاء الحقائق والظهور بالمظهر اللائق.

وقد صار لكثير من الناس سلوكان، الظاهر منهما خير من المستور، مع أن الأصل في المسلم أن يكون باطنه خيراً من ظاهره.

كثير من الآباء لا يجرؤ على الاعتراف بخطأ ارتكبه مع ابنه، وكثيرات هنَّ الأمهات اللواتي يصررن على موقف من المواقف مع إدراكهن أنه موقف خاطئ. وماذا نتوقع أن يكون موقف الطفل حين يرى أن جميع من حوله يدعمون الكمال، ويظهرون بمظهر المعصوم الذي لا يخطئ؟

لا ريب أنه سوف يفعل كما يفعل غيره، وسوف يتعلم الجدل والدفاع عن النفس بالحق والباطل، كما أنه سوف يستر عن أبويه كثيراً من الأمور التي قد

يؤاخذونه عليها في حال معرفتهم بها.

كان أحد كبار المربين يجمع أولاده وأحفاده في جلسة مباسطة ومفاتحة، ثم يقول لهم: دلوني على عيوبي، ماذا تأخذون عليّ، وكان الجميع يتحرج في البداية من أن يقول شيئاً، وحين يجدون منه الإلحاح في ذلك يذكرون له بعض ما يعتقدون أنه خطأ يقع فيه، وبعد أن ينتهوا من كلامهم يقول لهم: اختلفتم في كذا، واتفقتم في كذا، وأنا ملتزم بأن أعمل كل ما اتفقتم عليه.

وإذا اعترفنا بأخطائنا أمام أبنائنا، فلن نسقط من أعينهم – على عكس ما يُظن – وإنما سيزدادون حباً وتقديراً لنا، وسيتنسمون في بيوتنا روائح الصدق والمصداقية.

إن للتصرف على السجية والطبيعة دون تكلف أو تزوير طعماً مميزاً، لا يعرف لذته إلا من ذاقه، فهل نتذوقه؟

٧. التربية خدمة وليست إستعباداً

إن الأصل في المسلم أن يبتغي من وراء تربية أولاده ورعاية أسرته رضوان الله – تعالى – ويرجو ثوابه؛ ثم إن ما نعانيه في التربية هو وفاء لدين قديم، حيث كابد آباؤنا وأمهاتنا في تربيتنا نحواً مما نكابده مع أبنائنا جرياً على سنة الله – تعالى – في الخلق. وإذا كان الأمر كذلك فإن من غير المقبول ما نشاهده من بعض الآباء والأمهات، من فرض هيمنتهم على الصغار، على نحو يجعل العلاقة بنيهم علاقة تسلط واستعباد.

وكثيراً ما يتجلى ذلك في إصدار المزيد من الأوامر للأبناء ورفض رغباتهم، وحملهم على سلوكات محددة، وتشكيل أذواقهم الخاصة على ما يهوى الأهل. بعض الآباء يريد من أبنائه أن يظلوا دائماً على أهبة الاستعداد لتلبية طلباته التي لا تقف عند حد، كما أن بعضهم يريد من أهل بيته أن يمشوا على رؤوس أصابعهم، إذا كان نائماً، أو كان عنده ضيوف، وبعضهم يحجر على الطفل أن يراجعه في أي كلمة يقولها ولو كان الطفل مؤدباً، ولو كان على صواب فيما يريد قوله!

بعض الأمهات تريد من ابنتها أن تلعب وتأكل وتذاكر بنفس الطريقة

التي كانت تتبعها لما كانت صغيرة، حتى إن بعض الأمهات تتدخل في لون حقيبة الطفل وشكل قَصَّة ثوب البنت.... وهذا كله يجعل الطفل يشعر بأنه مسحوق الشخصية، وأن العلاقة بينه وبين أبويه أشبه بالعلاقة بين السجين والسجّان!

النتائج المنتظرة لكل ذلك لا بد أن تكون سيئة، وكثيراً ما لاحظ علماء التربية أن هذا الأسلوب في التحكم في الأبناء وتربيتهم يؤدي إلى نتائج وخيمة، منها:

- انطواء الطفل على نفسه.
- عدم انشراحه للجلوس مع أبويه.
- شعوره بالنقص.
- العدوان والتخريب كلما سنحت له الفرصة.
- تشربه لمعاني الحرفية والانضباط الزائد.
- ميله إلى السلبية نتيجة التعامل السلبي معه.

إن التربية الجيدة ليست تلك التي تجعل الطفل يشعر أنه جندي يعيش في ثكنة عسكرية، وإنما تلك التربية التي يستمتع فيها الطفل بصحبة والديه، ويشعر أن اختياراته موضع اعتبار وتقدير.

٨. تعريف الطفل على الله تعالى

إن أول ما ينبغي للأبوين - ولا سيما الأم - تلقينه للطفل هو التعرف على الله - تعالى - وحبه، وأنه الخلاق الرزاق المعطي الكريم اللطيف الخبير الذي يستحق أعظم الحمد والشكر، وأنه - سبحانه - المطلع على أحوال عباده البصير بنواياهم، وأعمالهم؛ مما يقتضي الإخلاص له ومراقبته والخوف من عقابه. وقد دلنا على ذلك نبينا محمد ﷺ من خلال موعظته العظيمة لابن عباس - رضي الله عنهما - وهو راكب خلفه على دابة حين قال له: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله. وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله - تعالى - لك. وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف».

يمكن للأبوين أن يعلقا قلب الطفل بالله - تعالى - من خلال السؤال تارة ومن خلال التعليم والتلقين تارة أخرى؛ كأن نقول له: من الذي وهبك هذا الشعر الجميل؟ ومن الذي رزقنا هذا الطعام الذي نأكله؟ ومن الذي

يجب أن نصلي له، وندعوه ونطيع أمره؟ .. فإذا أخطأ في الإجابة شرحنا له وعلمناه.

في إمكان الأم إذا طلب ولدها شراء شيء أن تقول له: اطلبه من الله، حتى يرزق أباك، ويحضره لك. وفي إمكان الأب إذا لاحظ على ابنه أنه يكذب أن يقول له: ألا تشعر أن الله مطلع عليك، ويعرف أنك تكذب؟

وهكذا تتم تنمية الوازع الداخلي وتكوين أحاسيس المحبة والمراقبة لله – تعالى – والشعور بمعيته.

ونحن في أيامنا هذه أحوج ما نكون إلى ترسيخ هذه المعاني، حيث إن ما يسمعه الطفل ويراه في كثير من وسائل الإعلام بات خالياً من هذه الأمور الجوهرية، وحيث يجتاح العالم موجات اللهو والمرح واللعب والقصص والأعمال (الدرامية) التي شغلت أذهان الناشئة بكل شيء إلا قضية التوحيد وقضية الهدف الأكبر من الوجود!!

٩. غرس أصول الاعتقاد في ذهنية الطفل

القاعدة العقدية تشكل البنية العميقة لأي وضعية ثقافية، وعلى مقدار متانة تلك القاعدة تكون صلابة البناء الثقافي كله. وعلينا في مسألة تأسيس العقيدة أن ننظر إلى البيت على أنه المسؤول الأول، حيث إن المناهج المدرسية في معظم الدول لا تؤمِّن للطفل المسلم ما يحتاجه من المعلومات التي تتعلق بالمعتقدات والتصورات الأساسية. وبعضها يقدم معلومات غزيرة لكن بطريقة غير جيدة، مما يجعل حصيلة الطفل في النهاية محدودة. ولا أريد هنا أن أستعرض مفردات أركان الإيمان، وإنما سأذكر نموذجاً لها على النحو الآتي:

- الله واحد لا شريك له ولا يشبهه أحد.
- كل المخلوقات محتاجة إليه.
- الله غني عن كل ما سواه.
- إفراده بالعبادة واجب.
- يعلم ما خفي من أمور عباده وما ظهر.
- رحمته واسعة وعقابه شديد.
- يحب الطائع ويبغض العاصي.
- لا نحتاج في عبادته إلى واسطة.
- ندعوه ولا ندعو سواه.

- لا طاعة لمخلوق في معصيته.
- نتفكر في مخلوقاته ولا نتفكر في ذاته.
- هو النافع والضار.
- نؤمن أن الله أرسل رسلاً للناس من أجل هدايتهم.
- الرسل جميعاً يدعون إلى التوحيد وإلى عبادة الله.
- الرسل معصومون من الوقوع في الذنوب والمعاصي.
- رسولنا محمد ﷺ مرسل للناس كافة وكل رسول قبله مرسل إلى قومه.
- الرسل كثيرون وقد قصَّ الله علينا في القرآن الكريم أخبار (٢٥) منهم.
- أولو العزم من الرسل خمسة، هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

وهكذا يلقن الصغير منذ نعومة أظفاره ما يتعلق بالكتب السماوية وبالملائكة واليوم الآخر وباقي مسائل الإيمان الأساسية. وعلينا أن نتلقى أسئلة الطفل حول الأمور الغيبية برحابة صدر، ونجيبه على قدر ما يعقل، ويمكن أن نقول له في بعض الأمور: إنك الآن لا تستوعب ما نقوله لك، وعندما تكبر قليلاً سوف تفهمه بسهولة.

وعلينا إلى جانب هذا أن نحذر من الدخول في الأمور الجزئية، وفيما شجر فيه الخلاف من أمور الاعتقاد بين أهل العلم حتى لا نشوش ذهن

الصبي، ونترك لديه انطباعاً بأن أمور العقيدة قابلة للجدل والخلاف والاجتهاد فتهون لديه.

وهناك الآن كتيبات صغيرة تقدم العقيدة الإسلامية للأطفال بأسلوب شيق وسهل، وينبغي على الأم أن تقتني بعضها، وتدرسها مع صغارها. كما أن الساحة لا تخلو من بعض الأناشيد التي ينشدها الأطفال، وفيها تمجيد للخالق – جل وعلا – وثناء عليه، وذكر لبعض صفاته، وسوف يستفيد الطفل من سماعها، وهي متوفرة ومسجَّلة على أشرطة مسموعة ومرئية.

١٠. الحرص على صفاء لغة الطفل وارتقائها

سنكون مخطئين إذا كنا نظن أن الأصل في الناس أن يكونوا واعين أو عارفين بما فيه الكفاية، فالصحيح أن الصغار والكبار لا يعلمون إلا إذا تعلموا؛ ولذا فإن الجهل يغلب على كثير من الناس والطفل مهما كانت أسرته ملتزمة ومثقفة، فإن لغته قد لا تكون صافية، حيث إنه يلتقي بأشخاص كثيرين خارج الأسرة، ومنهم يسمع الكثير من الكلمات التي تجرح صفاء العقيدة، أو الكلمات الهابطة والفاحشة. ومهمة الأبوين أن يحاولا تنقية لغة ابنهم وتهذيبها، وإليك طرفاً مما ينبغي الانتباه إليه:

- بعض الأطفال تعوّد أن يحلف بغير الله – تعالى – وهذا لا يجوز وينبغي أن يُنهى الطفل عن الإكثار من الحلف مطلقاً؛ لأنه إذا تعود ذلك اندفع إليه وإن كان كاذباً. ويجب أن نُعْلم الطفل أنه صادق وموثوق ولذلك فإنه لا يحتاج إلى الحلف.

- ورد النهي عن سب الدهر وسب الحمى وسب الريح، لأن هذه الأمور تجري وتقع بمقادير الله – تعالى – فهي لا تعقل حتى تتحمل المسؤولية، فتُشتمَ وتُسبَّ، والذي يفعل ذلك غير منطقي، وغير عقلاني.

وهناك مقصود آخر، هو الارتقاء بلغة الطفل المسلم وخطابه والشتم والسب يهبط بذلك الخطاب، وقد ورد النهي هذه العلة عن سب الإنسان

والحيوان والجماد، فالمؤمن – كما ورد في الحديث – ليس بالطعّان ولا اللعان ولا الفاحش. وقد ورد التشديد في لعن المؤمن خاصة، فقد قال – عليه الصلاة والسلام–: «لعن المؤمن كقتله».

ومن المؤسف أن اللعن يجري على ألسنة بعض المراهقين اليوم بعفوية تامة ودون أي حرج!

– بعض الناس ينطق بألفاظ تدل على اعتراض على قضاء الله وقدره، أو تدل على أن صاحبها متواكل، أو هي خطأ في حد ذاتها؛ وعلى سبيل المثال فهناك من يقول: «لما تاجرت بالحناء كثرت الأحزان». وهناك من يقول: «فلان لا يرحم، ولا يترك رحمة الله تنزل على الناس» وهذا لا يصح فرحمة الله لا يستطيع ردها أحد. وهناك من يقول: «قيراط حظ ولا فدان شطارة». وهذا من التواكل والتقاعس عن الأخذ بالأسباب وهناك من يقول: «الله يعطي الحلق لمن ليس له أذنان»، وهذا اعتراض على قسمة الله تعالى للرزق بين عباده.

إن تعبيرات الإنسان تدل على معتقده وفهمه، وينبغي أن يكون حرصنا على سلامة معتقد أبنائنا كبيراً.

المشكلة إذا كان أحد الأبوين يستخدم هذه الألفاظ، فكيف يكون العمل؟!

١١. التنازل عن المبدأ خسران للذات

من واجب الأبوين أن يثقفا الطفل بثقافة الاستقامة على أمر الله والثبات على المبدأ في المنشط والمكره، حيث إن الحق حق إلى قيام الساعة، كما أن الباطل باطل إلى قيام الساعة؛ ومن مهام المسلم في هذه الحياة إحقاق الحق والالتزام به، وإزهاق الباطل والبعد عنه. والحقيقة أن الذي يتنازل عن مبادئه يخسر ذاته، وإن الذي يخسر ذاته لا يصح أن يقال عنه: إنه كسب شيء آخر.

إن معقد الابتلاء في موضوع التدين يكمن في أن مصالحنا كثيراً ما تتقاطع مع مبادئنا، ويتحتم علينا أن نتخلى عن بعض مصالحنا في لحظة ما، إذا ما أردنا أن نظل على الطريق الصحيح.

لا بد للأبوين أن يوضحا لأولادهما أن المسلم الذي يثبت على مبادئه قد يخسر على المدى القصير ولكنه الرابح الأكبر على المدى البعيد، حيث لا نجاة ولا فوز من غير ثبات على الحق واستمساك به. وعليهما أن يوضحا لهم أن الذي يخرج على مبادئه في سبيل تحقيق بعض المصالح، قد يربح في المدى القصير، لكنه في النهاية سيكون من الخاسرين.

ومواقف النبي ﷺ العملية ناطقة بأن الرجل لا يخضع للمساومات، ولا تستخفه المغريات، وحين عرضت عليه قريش المال والجاه في سبيل أن يتنازل عن دعوته قال لهم: «ما أنا بأقدر على أن أدع ما بُعثت به من أن يشتعل أحدكم

من هذه الشمس شعلة من نار» أي إن عجزي عن ترك دعوتي أكبر من عجزكم عن مطاولة الشمس واقتباس شعلة منها!.

في زماننا هذا بات التوكيد على الاستمساك بالمبدأ أكثر إلحاحاً، حيث إن العولمة تُشيع في الناس أخلاقيات (الصفقة) والتي تقوم على إبراز المحاسن وإخفاء العيوب وتشجيع التسويات والحلول الوسط، إلى جانب المبالغة والاحتيال، والسعي إلى تحصيل المنافع من أي وجه كان.

وهذا كله حين يتم فإنه يتم غالباً على حساب دين المرء وكرامته و مبادئه. لنعلّم الطفل أن الإنسان حين يترك سبيل الرشاد من أجل نيل منفعة، فإنه يعرّض نفسه لنقمة الله. وحين يضحي في سبيل البقاء على الطريق القويم فإنه بذلك يستنزل رحمة الله – تعالى – وجوده؛ ومن ترك شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه. الثبات على المبدأ يجعل المرء يشعر أنه رجل يملك مقومات الرجولة، ويستعصي على الإغواء.

إن السلوك الشخصي للأب – على نحو خاص – يجب أن يكون نبراساً للأولاد يستهدون به في مقاومة الضغوط والإغراءات؛ وهذا أفضل ما يمكن أن يقدمه لأولاده على طريق أصالة الشخصية وصلابتها.

١٢. نحن الذين نعطي للحياة معناها النهائي

ليس الكون إلا ما نراه، وإن عقائدنا وأفكارنا عن الحياة هي التي تجلي معاني الحياة بالنسبة إلى كل واحد منا؛ وإن الخالق – جل وعلا – قد أعطى كل واحد منا القدرة على رفع شأن أي حدث في حياته والقدرة على التقليل منه متى أراد ذلك.

إذا دخل الواحد منا مع أشخاص آخرين في مشروع تجاري، ثم تنازع الشركاء، وأخفق المشروع، ووصل الجميع إلى طريق مسدود، في هذه اللحظة يمكن لكل واحد منا أن يخلع على هذا الحدث معنى خاصاً به؛ إذ يمكن لي مثلاً أن أقول: لن أدخل مع أي شخص في أي عمل تجاري؛ فالناس مُتعِبون، والذين يمكن أن يستفيد المرء من العمل معهم غير موجودين في هذا الزمان. وسوف أستطيع العثور على خمسين أو مئة واقعة تؤكد صدق النتيجة التي توصلت إليها. أما أنت فسيكون بإمكانك القول: إن سبب عدم نجاح مشروعنا لا يعود إلى كونه مملوكاً لأشخاص عديدين، ولكن لأنني لم أحسن اختيار الأشخاص الذين أقمت المشروع معهم. ويمكن أن نقول أيضاً: إن المجال الذي اخترناه لم يكن جيداً، أو نقول: بدأنا بداية ضعيفة فجرى ما

جرى وهكذا ... وسوف تجد في الواقع وفي تجارب الآخرين مئات الشواهد التي تؤكد صدق كل تحليل من تحليلاتك لأسباب إخفاق المشروع. وهكذا فإن من الممكن أن نقرأ الحادثة الواحدة قراءات متعددة، ونخرج منها بدروس مختلفة، وسيكون لها بالتالي تأثير متباين في توجيه أعمال المستقبل؛ وسيكون بإمكاننا تعميم هذا المثال على كل ما نواجهه من حوادث الحياة.

في قوله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له. وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له» إشارة واضحة إلى ذلك المعنى، فطبيعة كل من الخير والشر تتحدد وفق رد فعلنا، ومن خلال مواقفنا تجاههما؛ فالنعم تتحول إلى نقم إذا جحدناها أو استخدمناها في غير ما يُرضي الله تعالى. والمصائب تتحول إلى خيرات إذا نحن صبرنا عليها واحتسبناها عند الله.

هذا كله يعني أن على الأبوين أن يساعدا الأبناء على تشكيل رؤية صحيحة لأحداث الحياة؛ ولن تكون هذه الرؤية صحيحة إلا إذا قامت على التصور الإسلامي الراشد والمبني على الإيمان بوجود تأثير قوي لعقائد الناس في سلوكهم وقراءتهم للوقائع. ويستطيع الأبوان فعل ذلك من خلال تعليم الطفل التركيز على رد فعله تجاه الأحداث والتعامل معها عوضاً عن

الاستسلام لها والخروج من الساحة قبل بدء المعركة. و من المفيد في هذا الشأن أن نقص على الصغار بعض تراجم الرجال الذين حققوا انتصارات باهرة بعد سنوات من التعثر والإخفاق؛ وذلك بسبب ثقتهم بمعونة الله – تعالى – وتفاؤلهم وإصرارهم على النجاح، وبسبب قراءتهم للمخاطر والمصاعب قراءة إيجابية.

١٣. كل النجاحات والإخفاقات في هذه الحياة مؤقتة

ما دامت الحياة الدنيا مؤقتة، ومدة عيش كل واحد منا فيها محدودة، فإن كل ما نصيبه فيها من تقدم ونجاح، وكل ما يصيبنا من ضراء وبأساء وإخفاق هو الآخر سيكون مؤقتاً. هذا الاعتقاد يمنحنا قدرة هائلة على التوازن، فلا نبطر ونتكبر ونزهو بأنفسنا في حالة الفوز والنجاح، ولا نذل ونيأس، وننكسر في حالة المصيبة والإخفاق؛ وهذا ما نجده في قول الله – تعالى –: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢- ٢٣].

سوف ننعم بهذا التوازن الرائع إذا حاولنا أن نتحرر من أسر الهموم والوساوس والأوهام، وحاولنا استمداد المعونة والمساعدة من الله القوي العزيز. وعلينا إلى جانب هذا أن نأخذ دائماً بالأسباب، ونفعل كل ما يمكن أن نفعله في الاتجاه الصحيح، وأن نرضى بعد ذلك بالنتائج، ونستسلم لأمر الله تعالى.

نحن الكبار في أمس الحاجة إلى هذه الرؤية كي تستقيم حياتنا، ومن واجبنا أن ننشئ أبناءنا عليها. وخير وسيلة لذلك هو سلوكنا الشخصي،

حيث يجب أن يلمس الصغير من أبويه الاعتدال والتماسك في جميع شؤونهما، بالإضافة إلى استغلالهما الفرص السانحة لتركيز هذه الحقيقة؛ فإذا تفوق الولد في دراسته هنأناه، وشجعناه على الاستمرار، ووضحنا له أن كل نجاح في هذه الدنيا يستمد قيمته من وراء مقصدنا منه، فإذا كنا نهدف منه إلى الانتفاع الشخصي المشروع، ونفع المسلمين، فإنه سيكون خيراً وبركة علينا. وسيكون ذلك النجاح مؤقتاً ما لم نجعله يتصل بالآخرة عن طريق النية الصالحة. وفي المقابل فإذا أخفق الطفل في إحدى سنوات دراسته، أو في سباق، أو أي أمر سعى إلى الفوز فيه، فإننا نحاول معه أن نكتشف أسباب الإخفاق، ونوضح له إمكانات التدارك والتعويض، كما نوضح له أن الإخفاق الذي لا يؤدي إلى إخفاق أُخروي، يمكن التغلب عليه والخلاص منه. والفوز الحقيقي هو فوز أُخروي، كما قال – جل وعلا –: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

إن الموارد المتوفرة في هذه الحياة أقل بكثير مما تتطلبه تطلعات البشر وطموحاتهم، فلنصلها بعالم الآخرة الرحيب كي تتسع لنا.

لنعوّد الطفل عدم الاستسلام للحالة الراهنة سواء أكانت سارة أم مزعجة، وأن ينظر دائماً إلى العواقب والنهايات، فبذلك وحده يمكن الخروج من سجن الواقع إلى آفاق المستقبل الرحيب

١٤. التمسك بالسنة

من المتوقع في عصرنا الحاضر عصر العولمة أن يلقى الكثير من السنن والآداب الشرعية والاجتماعية الإهمال والتهاون لسبب جوهري، هو أن العولمة تنشر رموزاً ومفاهيم تشجع على الفردية والاختيار الحر، وتهمش روح الالتزام والانضباط، على عكس النمط الذي يشيعه التمسك بالسنة والآداب الشرعية عامة، حيث ينضبط سلوك المرء وحركاته بالهدي النبوي والمنهج الرباني الأقوم. ولا يخفى أن التمسك بالسنة، ينمي لدى المسلم الإرادة والتمنع على الأهواء والشهوات والمغريات، كما أنه إلى جانب ذلك يضفي على السلوك الاجتماعي طابع التوحد والانسجام، وهذا حيوي جداً لتوحيد المشاعر والمفاهيم. وانطلاقاً من هذا كان من مهام الأبوين – ولا سيما الأم – تلقين الطفل ما يمكن تلقينه من الأدعية والسنن والآداب التي تصوغ سلوكه، وهي كثيرة، ومنها ما هو قولي، ومنها ما هو سلوكي عملي. فمن السنن والآداب القولية:

- حمد الله – تعالى – إذا عطس، وإذا سمع عاطساً قال له: يرحمك الله.

- تسمية الله – تعالى – عند أول الطعام وحمده عند نهايته.

- إذا رأى الصبي شيئاً أثار عجبه قال: سبحان الله، عوضاً عن التصفير والصياح والتصفيق الذي يمارسه بعض الفتيان اليوم.

- يُحفَّظ الطفل أن يقول إذا استقيظ من النوم، الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور. إلى ما هنالك من أدعية وأذكار وردت في النصوص والأخبار الصحيحة، مثل أدعية الدخول إلى المنزل والخروج منه وأدعية الصباح والمساء.

وسيكون من الجميل أن تضم مكتبة المنزل بعض الكتيبات التي ترشد إلى ذلك.

ومن السنن والآداب العملية والسلوكية التي علينا أن نعوِّد الطفل على القيام بها: أن يبدأ باليمنى في لبس ثوبه ونعله وعند دخول المسجد، وتقليم الأظافر والأخذ والإعطاء... ويعوَّد تقديم اليسرى في ضد بعض هذه الأمور، مثل الخروج من المسجد وخلع النعل..

لنعوِّد الطفل إماطة الأذى عن الطريق؛ وإذا لم يفعل فلا أقلّ من أن يمتنع عن إلقاء الأذى في الطرقات والساحات العامة؛ إذ إن كثيراً من الأطفال يلقون اليوم العلب الفارغة وبعض الفضلات في الطرقات والساحات العامة

دون أي مبالاة!

ومما يعوده الطفل الأكل باليمين والأكل مما يليه، وعدم النظر في وجوه الأكَلَة على المائدة. وإذا سكب شيئاً في طبقة الخاص سكب على مقدار حاجته ويعلَّم كيف يأكل ما في صحنه، ولا يترك منه شيئاً.

على الأبوين أن يعوّدا أطفالهما المحافظة على الموارد والممتلكات العامة، فلا يتركوا الأنوار مضاءة بعد خروجهم من الغرفة، كما يعوَّدون أن يقفلوا صنابير المياه بإحكام، فلا يسرفوا في استخدام المياه مهما كانت رخيصة ومتوفرة، إلى آخر ما هنالك من سنن وآداب.

١٥. احترام الحقيقة

تتمتع الحقيقة بقوة ذاتية، وتفرض وجودها على الناس مهما حاولوا تجاهلها أو إخفاءها أو الحط من شأنها. والنفوس الكبيرة تفرح بالحقيقة، وتشعر بسعادة غامرة عند العثور عليها، وتتأثر لذلك إلى درجة البكاء، كما قال – سبحانه – عن بعض النصارى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

في إنكار الحقائق نوع من خداع النفس، ولا يخلو من شيء من الدناءة، كما أن الذين أدمنوا إنكار الحقيقة والاستهانة بها يشعرون بنوع من العتمة الروحية، حيث يتمردون على الصوت العميق المنبعث من أعماقهم.

ويعلمنا القرآن الكريم أن نواجه الحقائق مهما كانت صعبة بقوة وثبات، وها هو يبين للذين تخلفوا عن غزوة الحديبية أنهم سيدعون إلى ملاقاة أقوام أشداء – هم بنو حنيفة – حتى يتأهبوا لقتالهم: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦].

إن هذا كله يملي علينا أن نعود أبناءنا على التعامل مع الحقائق بموضوعية

وذلك من خلال سلوكنا الشخصي؛ فإذا كان على الطفل أن يتناول دواءً مراً فلا نقل له: هذا الدواء حلو ولذيذ، وإذا تناولته فسوف تحبه وتطلبه... وإنما نقول له: هو والله يا بني مر، وأنا حين كنت صغيراً مثلك كنت أتضايق من تناوله، وبإمكانك أن تكون أشجع مني، ومن الضروري أن تشربه ولو كان مراً حتى تبرأ من علتك؛ بإذن الله. وإذا كلفنا الصغير بعمل شاق، فلا تقل له: هو أسهل من شرب الماء، وإنما نقول له هو شاق، ولكن نعتقد أنك قادر على القيام به، وعلى ما هو أشق منه. وإذا تخاصم الصغير مع أحد الزملاء، وكان غير محق، قلنا له بصدق وأمانة: الحق مع فلان وأنت غلطت معه...

من المؤسف أن كثيراً من الأسر المسلمة لا تسلك هذا المسلك، فتزوِّر الحقائق أمام الأطفال، وتؤسس لديهم التهرب من الحقيقة. وأكثر ما تكون هذه المشكلة بارزة في البيوت التي انتشر فيها الحسد واغتياب الناس، فتراهم يصوِّرون لأطفالهم أنهم دائماً أفضل من غيرهم، وأنهم دائماً على صواب؛ والنقص والخطأ يكون دائماً من نصيب غيرهم. وعندما يكبر الصغار، ويدركون الأشياء على ما هي عليه يتولد لديهم نوع من خيبة الأمل ونوع من الاستخفاف بنوعية التربية التي تلقوها!

١٦. مساعدة الطفل على اكتشاف ذاته

الجهل هو أخطر مشكلة واجهها الإنسان على مدار التاريخ، وجهله بذاته هو أخطر أنواع الجهل. المجتمعات التي تخضع لبرمجة قاسية من العادات والتقاليد المبهمة – تعمق جهل أبنائها بأنفسهم من خلال عزلتهم عن المجتمعات الأخرى، ومن خلال تقديمها معارف مغلوطة أو مشوهة، فتصبح نظرتهم لأنفسهم مضطربة، كمن ينظر في مرآة محدَّبة أو مقعّرة.

الإنسان بحاجة إلى معرفة جيدة بنفسه حتى يحسّن تعامله مع الله –تعالى– ومع الناس، وحتى يعرف الفرص المتاحة له، والأخطار التي تتهدده.

إن أفضل الجهود التي نبذلها هي تلك الجهود التي نوظفها في معرفة أحوالنا الخاصة، والوقوف على إمكاناتنا الكامنة، وحقيقة المصاعب التي تعرقل تقدمنا. من غير معرفة الإنسان بنفسه لا يستطيع السيطرة عليها و لا على البيئة التي يعيش فيها، أو العلاقات التي يقيمها.

الحقيقة أن اكتشاف ذات الطفل ليس بالأمر اليسير، لكن التعرف على ميوله واستعداداته ونقاط القوة لديه يظل أمراً قريب المأخذ. وحتى يتمكن الأبوان من ذلك فإنهما يحتاجان إلى شيئين: ثقافة جيدة، واهتمام كبير.

هناك وسائل عديدة تساعدنا في هذه المهمة، منها:

- اختبار ذكاء يقيس مجموعة من القدرات العقلية لدى الطفل. ويمكن إجراؤه والطفل في الصف الثالث أو الرابع الابتدائي. ويحتفظ الأب بنتائج ذلك الاختبار، كما يمكن إطلاع مدرسه عليها. ومهما اتهمت اختبارات الذكاء بأنها تقيس القدرات العقلية ملتبسة بالثقافة، وأنها تنحاز لأبناء طبقة بعينها، فإنها ستظل تعطي مؤشرات جيدة.

- الدرجات التي يحصل عليها الطفل في المدرسة تساعدنا على معرفة استعداداته، فنكتشف – مثلاً – قوة الذاكرة من خلال المواد التي تحتاج إلى حفظ، ونكتشف من خلال درجات الرياضيات قدرته على التجريد، كما نكتشف قدراته الفنية ومهاراته من خلال مواد الرسم والأشغال وغيرها.

- إن الإنسان يملأ أوقات فراغه بأحب الأشياء إليه، ونحن نستطيع اكتشاف ميول الطفل من خلال مراقبتنا لأنشطته في أوقات الإجازة وفي الرحلات وأثناء أوقات الفراغ على نحو عام.

ما يحلم به الطفل ويتمناه حيث يمكن أن يخبر أبويه عن العلم الذي يستهويه ويتطلع لدراسته في المستقبل، أو المهنة أو العمل الذي يحب أن

يمارسه. ومهمتنا بعد أن نكتشف ميوله و استعداداته أن نساعده على تدعيمها من خلال القراءة المكثفة، ومن خلال بعض الدورات ومن خلال إشراف أحد المتخصصين عليه.

وعلينا أن نعلم أن قابليات الطفل شديدة الحساسية، فإذا أهملته وتركته، وإذا نالته ما تستحقه من الصقل والعناية والتدريب آتته اكلها أشكالاً وألواناً.

١٧. تشكيل عقلية الانفتاح نحو المتغيرات

التغير والتحول سنة من سنن الله – تعالى – في الخلق؛ وهو في الوقت ذاته نعمة من نعم الله؛ إذ إن ثبوتية أي شيء تجعله مملاً، فيفقد ألقه وبهجته. عصرنا هذا هو عصر التغيرات السريعة؛ وذلك بسبب أن كثيراً من الآراء القديمة أخضعت للاختبار، فتبين أنها غير صحيحة، وبذلك تم تجاوزها. وعلى سبيل المثال فإن أرسطو كان يرى أن أسنان الرجل أكثر من أسنان المرأة؛ ومع أن الرجل تزوج مرتين إلا أنه لم يخطر في باله أن يطلب من إحدى زوجتيه أن تفتح فمها، ولو فعل ذلك لأدرك عدم صحة مقولته التي آمن بها الناس قروناً عدة!

أما اليوم فكل شيء يتم اختباره، وهناك ميل شديد إلى تطبيق الأفكار الجديدة من أجل تحسين نوعية الحياة.

الجديد في المعايير الإسلامية لا يتسم بخير ولا شر، فقد يمثل خطوة في الاتجاه الصحيح، وقد يمثل انتكاسة. وعلى الناس كي يسبروا ذلك أن ينفتحوا عليه لا لتطبيقه ولكن لمعرفة كنهه وجوهره.

الطفل مفطور على حب الجديد وعلى التطلع والتساؤل والاكتشاف،

ولكن خوف الكبار من الجديد، وأنسهم بالقديم، هو الذي يُضعف ذلك عند الناشئة ليكونوا في نهاية المطاف مثل الكبار!

ولعل ما ذاع على ألسنة الناس من الأمثال يصور ذلك التوجس على نحو واضح، كما في قولهم: «لا تعرف خيره حتى تجرب غيره». وقولهم: «الذي تعرفه خير من الذي تتعرف عليه».

الآباء والأمهات في البيوت مطالبون بتكوين عقلية الطفل نحو المتغيرات والأشياء الجديدة تكويناً متوازناً؛ فلا يستمسك بالقديم لقدمه، ولا يفرح بالجديد لجدته. ومما يساعد على هذا الأمر ما يلي:

١ - جعل الطفل يعتقد أن الحكمة ضالة المؤمن، فأنى وجدها فهو أولى بها - كما ورد في الحديث - وأن كلمة الحق قد تأتي من صالح، كما تأتي من طالح، وقد تأتي من صديق، وقد تأتي من عدو.

٢ - تعويد الطفل على التجريب، فإذا كان متردداً بين أسلوبين في عمل شيء ما - مثلاً - فإنه يُحفَّز على تجريب الأسلوبين حتى يرى أيهما أنجع.

٣ - يُفهَّم الطفل أن النظم والوسائل التي اخترعها الإنسان، إنما اخترعها لفائدته وخدمته وتحقيق مصالحه، ومن الحكمة أن يتخلى عنها حين تفقد

قدرتها على الخدمة، أو حين يجد ما هو أفضل منها أداءً أو أقل تكلفة.

٤- تنمية حسّ المقارنة لدى الطفل، فالمقارنة ركيزة أساسية في نشأة كل العلوم وفي بناء الوعي البشري، فمن خلال المقارنة يمكن للطفل أن يكتشف ميزات الأشياء وعيوبها وبذلك يصبح قادراً على الاختيار بين القديم والجديد.

٥- أن ننمي لدى الطفل القدرة على السماع لوجهات النظر المختلفة، مهما بدت فجة وغير منطقية. وبعد السماع يتم الحكم والتمييز بينها.

٦-تعليم الطفل أن كل الآراء التي يسمعها تحتمل الخطأ والصواب، وأن الكبار يخطئون كما يخطئ الصغار، لكن نوعية الخطأ تختلف؛ فما من أحد من العلماء إلا يرد على غيره، ويرد عليه غيره، إلا المعصوم عليه الصلاة والسلام. والمسلم - على نحو عام - يعرف الرجال بالحق، ولا يعرف الحق بالرجال.

٧- يعتمد الأبوان أسلوب الحوار والمناقشة مع الطفل في توضيح الموقف من الأشياء الجديدة.

١٨. تعليم الطفل الفرق بين الطبيعي وغير الطبيعي

إن الأطفال قادرون على استيعاب الكثير من الأفكار والقواعد السلوكية إذا شرحت لهم بطريقة سهلة وميسرة، وإذا ضرب لهم عدد كبير من الأمثلة عليها. إننا حين نركز على فتح عيون الناشئة على الاهتمام بالأحكام العقلية وتنقيتها من الأخطاء التي قد تتخللها نضعهم بذلك على الطريق الصحيح في النظر إلى الأشياء والتعامل مع الأحداث.

ومن الملاحظ أن كثيراً من الناس لدينا يخلطون خلطاً كبيراً بين المألوف وغير المألوف، وبين الطبيعي وغير الطبيعي والمطرد والشاذ. وهذا الخلط يشوش تصوراتنا، ويؤثر تأثيراً سيئاً في مواقفنا وتصرفاتنا وعلاقاتنا. وإليك بعض الأمثلة التي توضح هذا الملحظ:

- المستشفيات مجتمعات ضعيفة، لأنه لا يؤمها إلا من لديه مشكلة صحية؛ ولذا فوجود المرضى فيها هو الشيء الطبيعي والمألوف. فإذا رقد على أحد أسرّتها البيضاء رجل معافى يتظاهر بالمرض - لمأرب ما - فهذا هو الشيء الشاذ وغير الطبيعي، وهو لا يشكل اثنين أو ثلاثة في الألف.

وفي المقابل فإن الرياضيين يذهبون إلى النوادي وهم معافون أصحاء حتى

يزدادوا قوة ولياقة؛ فإذا وجدنا فيها شخصاً مريضاً يتظاهر بأنه معافى – لمأرب ما – فإن هذا من قبيل الشاذ وغير العادي.

- نجاح الطالب الجاد في دراسته المؤدي لواجباته هو الشيء المطرد والطبيعي. ورسوب الطالب الكسول المهمل هو أيضاً طبيعي ومألوف. فإذا حدث عكس ذلك لأي واحد منهما كان ذلك شاذاً.

- حين نسافر بواسطة سيارة جديدة فإن المألوف والطبيعي أن نبلغ عليها وجهتنا دون أن تصاب بعطل أو عطب؛ لأن العمر الافتراضي لكل قطعة فيها ما زال في بدايته. وإذا حدث فيها عطل فإن ذلك يكون غالباً من غير المألوف. أما إذا ركبنا سيارة مضى عليها في الخدمة عشرون سنة، فإن حدوث أعطال فيها أثناء السفر سيكون مألوفاً جداً، بل إن بعض الناس سوف يعجب منك لوثوقك بها وركوبك إياها في سفر طويل وهكذا...

الكسالى والفوضويون يتعلقون بالأمثلة الشاذة من أجل إسقاط القاعدة. وهذا مألوف جداً في البلاد النامية والمتخلفة. وقد شاهدنا كثيراً من الطلاب الكسالى الذين يقولون: إن فلاناً لم يذاكر في أيام الامتحان ولا قبلها، ومع ذلك نجح. وفلان واصل الليل بالنهار في القراءة والحفظ ومع ذلك رسب.

نعم كل هذا يحدث، لكن ليس هو القاعدة، وإنما هو الشاذ الذي يؤكد القاعدة.

كثير من الأطفال يقولون لآبائهم فلان دائماً يضربني. وعند التحقيق يتبين أنه ضربه مرة واحدة، وهكذا حوّل الطفل الشذوذ إلى قاعدة .

حتى نحمي الطفل من هذا الخطأ فإن علينا أن ننقله دائماً من الكلام المطلق إلى استخدام اللغة الكمية؛ فإذا قال – مثلاً – الطالب فلان نجح دون أن يدرس، قلنا له: كم عدد الأشخاص الذين تعرف أنهم نجحوا دون دراسة؟ فإذا قال: هم كثير، قلنا له: كم نسبتهم – فيما تعرف– إلى الذين نجحوا لأنهم اجتهدوا ودرسوا؛ وهكذا...

١٩. تعليم الناشئ الفرق بين قيمة الهدف وقيمة الوسيلة

الخلط بين الأهداف النهائية وبين الأهداف/ الوسائل، والوسائل المحضة سبَّب الكثير من الارتباك والكثير من العناء لكثير من الناس؛ ولذا فإن من واجبنا في البيوت أن نعنى بهذه المسألة حتى نضع حجر الأساس لاهتمامات أبنائنا، وحتى نرشّد سلوكاتهم.

الأهداف النهائية هي تلك الأمور التي تمثل الحاجات الأساسية والعميقة لوجودنا، وهي عديدة، ويأتي في قمتها الحصول على رضوان الله – تعالى – والفوز في الآخرة، فهو بحق هدف الأهداف، وغاية الغايات. وإن كل الأهداف الصغيرة والكبيرة التي يحققها المسلم في هذه الحياة يجب أن تخدم في نهاية المطاف ذلك الهدف. وهناك أهداف أقل شأناً، وهي تلك التي تتصل بمقومات عيشنا وحاجات وجودنا، مثل السعادة والحرية والتعاطف والأمان وراحة البال والاستقرار وما شاكل ذلك.

القرارات الكبرى التي نتخذها في الحياة يجب أن تخدم أهدافنا الكبرى. والقرارات التي تخدم قضايا صغيرة يجب أن ننظر إليها على أنها قرارات صغيرة.

الوسائل/ الأهداف هي تلك التي تتصل بأهدافنا الكبرى، ونتوسل إلى تحقيقها عن طريق بذل بعض المساعي واستخدام بعض الوسائل؛ فالمال – مثلاً – وسيلة لتأمين المطعم والملبس والمسكن وما شاكل ذلك، وهذه عند توفرها تساعدنا على تأمين الشعور بالأمان والاستقرار وراحة البال.

أما الوسائل المحضة فهي التي لا تشكل أكثر من أداة تعيننا على الوصول إلى ما نريد؛ فالقلم الذي أكتب به ليس أكثر من أداة للكتابة، ويستمد قيمته من جودة أدائه لهذه الوظيفة. والمصباح ليس أكثر من وسيلة إضاءة... لا ريب أن هناك فروقاً بين درجة جمال مصباح ومصباح، وقلم وقلم، وبين كفاءة مصباح ومصباح، وكفاءة قلم وقلم في أداء الوظيفة التي أوجد من أجلها، لكن تلك الفوارق تتصل بنواح جمالية وكمالية، وليس لها اعتبارات جوهرية.

بعد هذه المقدمة أرى أن نشيع لدى أطفالنا فيما يتعلق بهذا الأمر المفاهيم الآتية:

- التمحور دائماً حول الأهداف الكبرى، وجعلها معياراً لما دونها، فالعبادات على اختلاف أنواعها يجب أن تؤدي إلى تحسين صلتنا بالله -تعالى- وأن تثري مشاعر الحب له، وإلا فإنها تكون منطوية على خلل ما، وتحتاج

بالتالي إلى مراجعة، فقد يكون لدينا نقص في الإخلاص أو نقص في سلامة الأداء.

- على مقدار ما نتشبث بالأهداف نكون مرنين في الوسائل والأساليب، فإذا كان النجاح هدفاً يجب السعي إليه فإن الوسائل التي قد تؤدي إليه عديدة؛ ولا حرج على المرء أن يأخذ بأيها شاء ما دام مشروعاً؛ فالفهم -مثلاً- هو الهدف الجوهري للقراءة، ويمكن أن نصل إليه بأنواع مختلفة من القراءة. ومن هنا نشأ فن الإدارة بالأهداف.

ارتباط الوسائل بالأهداف ليس حتمياً ولا آلياً، فقد نملك المال ولا نشعر بالأمان، وقد نملك القلم ولا نكتب به؛ ولذا فلا ينبغي أن نتوقف عند الوسائل، وعلينا أن نتجاوزها إلى الغايات، وأن نعد كل وسيلة شيئاً شكلياً والغاية التي نريدها من استخدامها هي الجوهر والمضمون.

٢٠. تكوين العقل السببي

تعشعش الخرافة في عقول كثير من الناس بسبب أنهم لم يتلقوا تربية عقدية وفكرية جيدة. وقد مرّ على المسلمين عصور تدهورت فيها الأعمال العقلية إذ سادت الأمية، وكثر الدجالون، وغاب الربط الراشد بين الأسباب والمسببات والمقدمات والنتائج؛ مما أدى إلى إيجاد ارتباك عام في الحياة الإسلامية كلها.

لا ريب أن الوضع الآن أفضل في مجالات كثيرة. والتربية هي التي تساعدنا على المزيد من التحسن وعلى المزيد من المقاومة لأشكال الخرافة والتواكل والفهم المعوجّ التي يمكن أن تعود إلى عقول الناشئة ومعتقداتهم في أي وقت.

عالم الدنيا عالم أسباب تتجلى فيه علاقات الارتباط بين الأشياء؛ كما أن عالم الآخرة عالم تتجلى فيه قدرة الخالق سبحانه. العلم الحديث كشف أعداداً هائلة من الأسباب التي يرتبط بها أعداد ضخمة من الظواهر، وتلك الكشوف العظيمة توفر شروطاً مهمة للتقدم التقني، وكثيراً ما تكوّن بعض مظاهره.

الأخذ بالأسباب مطلوب شرعاً، وهناك نصوص عديدة ونماذج من

سلوكه ﷺ في هذا الشأن معروفة لدى القارئ الكريم .

ومن حِكَم تحريم شرب الخمر أنها تؤدي إلى تعطيل فهم العلاقة السببية في ذهن شاربها.

لا بد أن نوضح للناشئة أن فهم الحياة لا يتم على الوجه الصحيح إلا إذا عرفنا أوجه الارتباط بين الأشياء على ما هي عليه.

ويجب أن نوسع فهمهم لهذه المسألة عن طريق بحث بعض الظواهر، حيث إن من الممكن أن يكون للظاهرة الواحدة سبب واحد، ويمكن أن يكون لها أسباب عدة، كما يمكن أن تكون لها أسباب مباشرة وأسباب غير مباشرة.

وعلى سبيل المثال فقد تكون جرثومة معينة هي السبب الوحيد المباشر لحدوث مرضٍ ما، ويكون ذلك المرض هو السبب الوحيد المباشر لشعور المريض بالألم. وقد يكون وراء الظاهرة الواحدة أسباب متعددة، فظاهرة الإجرام في المجتمع قد يكون وراءها أسباب اقتصادية كالفقر، وأسباب تتعلق بالقيم كالثأر، أو الانتقام للشرف. وقد تكون لأسباب عضوية وراثية كوجود اختلال معين في الغدد، أو في التركيب العقلي، أو بسبب تناول الكحول والمخدرات إلخ... ووزن كل سبب ومدى مساهمته في حدوث الظاهرة لا

يدرك إلا عن طريق الإحصاء.

يمكن للآباء والأمهات أن يشكلوا العقل السببي لدى أبنائهم عن طريق ذكر أسباب الحوادث والظواهر في أحاديثهم معهم، كأن يقال: فلان تسوست أسنانه لأنه لم ينظفها. وفلان نجح لأنه يحافظ على وقته وفلان وجهه مشرق لأنه يكثر من ذكر الله -تعالى- وفلان يربح في تجارته لأنه صدوق في تعامله مع زبائنه، وهكذا...

إن (التعليل) بالإضافة إلى قدرته على تشكيل العقل السببي، يساعدنا على ترسيخ بعض القيم وإيقاظ مشاعر الطفل نحوها

٢١. بناء عقلية التثبت واليقين

نقل الأخبار على عواهنها دون تمحيص ولا تدقيق، مما عمت به البلوى في مجتمعاتنا الإسلامية، بل هو مرض إنساني عام. وكلما انتشر الجهل زاد انتشار هذا المرض، فالأشخاص المحرومون من الثقافة الجيدة يصدّقون كل خبر يقرؤونه في جريدة، ويتلقفون كل شائعة تطرق أسماعهم، وهم كثيراً ما يرفضون أي مناقشة لذلك، لأنه في اعتقادهم ثابت وواضح. أما أولو العلم والخبرة فقد تعلموا من ممارستهم الطويلة للأعمال العلمية أن كثيراً مما كان يسمى حقيقة علمية صار بعد مدة أمراً مشكوكاً فيه. وهم يفرقون – على خلاف الجهلة – بين الرأي الذي يراه أحد الأشخاص، أو آحاد الناس، وبين الحقائق العلمية المجتمع عليها. معظم الناس – بما فيهم بعض المتخصصين – لا يملكون الحساسية الكافية لنقد الأخبار والتثبت من صحتها. وبعضهم يدرِّس طلابه جهود المحدثين في غربلة الأخبار والحكم عليها، وهو غير قادر على الاستفادة مما يقوله في حياته العملية!

القرآن الكريم أمرنا بالتبين والتثبت حين قال – سبحانه –: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ وفي قراءة فتثبتوا ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ

فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦].

حين يسمع المرء كلاماً غير متيقن من صحته فعليه ألا يرويه ونقله إلا على وجه النقد والتمحيص، وذلك حتى لا يزيد الطين بلة؛ وقد قال – عليه الصلاة والسلام-: «كفى بالمرء كذباً أن يحدِّث بكل ما سمع».

علينا أن نعلّم أطفالنا أن معظم ما يتناقله الناس إما غير صحيح وإما غير دقيق. وكلما اتسعت دائرة انتشار خبر من الأخبار، وكثر المتداولون له كان تعرضه للتحريف أكبر. إن الناس يكرهون الفراغ، فإذا سمعوا قصة ناقصة أو غير منطقية، فإن مخيالهم الشعبي يبدع ما يكمل به النقص ويزيل اللامنطقية.

إذا روى أحد أولادنا خبراً ساعدناه على تمحيصه ونبهناه إلى عدم التسرع في تصديق كل ما يسمع، وإلى عدم التوسع في روايته ونشره. ويمكن أن نقول له: هل الذي حدثك رأى ذلك بعينه أو سمعه بأذنه من صاحب الشأن حتى يمكن التأكد منه، أم أن الأمر على غير ذلك؟

إن من المفيد أن ندرب الناشئة – ولا سيما المراهقين منهم – على نقد ما يسمعونه وتحليله وبيان مبالغاته وتناقضاته، وسينتفعون بذلك انتفاعاً عظيماً

٢٢. تنمية المهارات العقلية

عصرنا عصر انفجار المعلومات، والذي أدى إلى ذلك هو استخدام الإمكانات العقلية التي وهبنا الله – تعالى – إياها بمهارة عالية. ومن الآن فصاعداً لن يكون الحصول على المعلومات في معظم الأحيان يشكل أي مشكلة للناس، ولن يشكل امتلاك المعلومات في المستقبل فارقاً جوهرياً بين الأمم والأفراد، وإنما ستأتي الفوارق الكبرى من مهارات الناس في استخدام المعلومات وتحليلها وتوظيفها؛ ولذا فإن تنمية المهارات العقلية لدى الأطفال، ستكتسب أهمية إضافية.

إن بإمكان الأسرة أن تضع اللبنة الأولى في الصرح الذهني عن طريق تعليم الطفل كيفية تنمية مهاراته العقلية، وجعلها جزءاً من الألعاب التي يمارسها مع أهله في المنزل وفي الرحلات، ومع أبناء الجيران والزملاء.

وإليك بعض النماذج لذلك:

١-توضع آلة أمام مجموعة من الأطفال – ولتكن دراجة أو جهاز هاتف أو ساعة منبه – ثم يطلب من الأطفال التفكير فيما يمكن إدخاله من تحسينات عليها، ويناقش معهم أحد الكبار كل مقترح من المقترحات وبيان إيجابياته

وسلبياته.

٢-يقال لمجموعة من الأطفال: تعالوا فكروا معنا في التصرف الأمثل حيال المواقف المحرجة التالية:

- دخلت إلى مطعم، وبعد أن أكلت لم تجد في جيبك نقوداً.
- شخص لا تعرفه، أقبل نحوك وادعى أنه يعرفك وشرع يحدثك.
- دخلت إلى قاعة الامتحان وأنت تظن أنه امتحان توحيد فإذا به امتحان تاريخ.

٣-فكّر ماذا يحدث لو:

- كنت تمشي وأنت نائم.
- اكتشفت وأنت في المدرسة أن لوني نعلك مختلفان.
- تشابهت وجوه كل البشر.

٤-ماذا يترتب على الآتي؟

- انتشار الترف في المجتمع.

- وجود أوبئة مستوطنة.
- انعدام الثقة بين الناس.
- عدم التقيد بأنظمة المرور.

سيكون من الرائع أن تعقد الأسرة اجتماعاً شهرياً أو نصف شهري لمدة ساعة، يتم فيه ما يسمى بالعصف الذهني حيث يطرح موضوع ما للمناقشة، ويدلي كل واحد من أفرادها بما لديه فيه.

٢٣. أحلام الأطفال وأخيلتهم

إن الخيال يضع الإنسان خارج حدود خبراته وخارج حدود ظروفه، إنه يرتع بنا في أرض خصبة لم نطأها من قبل متجاوزين كل الأغلال التي طالما رسفنا فيها. إن الخيال حين نركزه على شيء معين يمنحنا بصيرة نافذة في اكتشاف آفاق ذلك الشيء. وربما كان فقر الخيال من أكثر ما يسبب الإخفاق للأفراد والمؤسسات. مهما تكلمنا عن قوة الإرادة وفضل صلابتها فإن الخيال يظل أقوى تأثيراً في حياتنا من الإرادة بعشرات المرات. وقد كان إنشتاين يقول: «الخيال أعظم قوة من العلم».

لنجعل الطفل يتخيل أنه سيكون فقيهاً كالشافعي، أو محدثاً كالبخاري، أو شاعراً كالبحتري، أو... فهذا الخيال لا يكلف شيئاً، لكنه حين يستمر يوجِد اتجاهاً لدى الصغير، ويوجد اهتمامات تخدم ذلك الاتجاه... وبعد مدة يبدأ بالالتحام والتفاعل مع ذلك الذي يحلم به. وحين يصل إلى هذه المرحلة تبدأ البرامج في الانبثاق، وتتفتق المواهب وتتفجر الطاقات الكامنة التي تساعد على تحقيق ذلك الحلم. قد لا يصل المرء إلى ما يحلم به، لكنه في الغالب يصبح على مقربة منه، ومتميزاً عن غيره في تحقيقه.

كانت الأمهات والجدات منذ الجاهلية يعرفن فضل إثارة خيال الصغار،

فكنّ يسردن عليهم قصص البطولة والكرم والإيثار قبل النوم – خاصة – حتى تتغلغل تلك المعاني في اللاشعور، وتبدأ عملها المستتر. وكن وهن يدهدهن أسرّة الصغار ينشدن الأشعار التي تحمل معاني التفوق والعظمة والغلبة والمجد، كما هو معروف ومشهور. ويذكرون في هذا السياق أن هند بنت عتبة كان معها ابنها معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنهم – وكان صغيراً، فقالت لها امرأة وقد رأت مخايل النجابة على معاوية: إن ابنك هذا إذا عاش ساد قومه. فقالت هند – وكانت امرأة شريفة واسعة الطموحات –: ثَكِلْتُه – أي فقدته – إن لم يسد إلا قومه. إنها وضعت في ذهنه أنها لا ترضى منه أن يكون سيداً على قومه فحسب. وقد كان ذلك، فقد قاد معاوية الدولة الأموية عشرين سنة، وظل والياً على الشام قبلها عشرين سنة أخرى.

لنساعد الطفل منذ الصغر على أن يحلم بشيء عظيم، ولنأت له بالكتب التي تحكي سير الرجال الذين نبغوا في ذلك الشيء، حتى يدخل عالمهم، ويسلك مسالكهم. وبين الفينة والفينة تذكّره بما كان يطمح إليه، ونساعده على توفير الظروف التي تمكنه من تحقيق ذلك.

٢٤. تحفيز روح التساؤل لدى الطفل

يولد الإنسان وهو بحاجة ماسة إلى كل الخبرات التي تجعله يسير في طريق امتلاك إنسانيته. ومن أجل هذا زوّد الله – تعالى – الأطفال بحب التساؤل والاطلاع ومعرفة الأسباب. وإذا تأملنا في نوعية الأسئلة التي يطرحها الأطفال، فإننا نخال أنفسنا أمام فيلسوف كبير يريد أن يصل إلى فهم كل ظاهرة والوقوف على علتها.

إن الأطفال هم الأبطال الحقيقيون لعملية طرح الأسئلة، وربما كانت هذه المسألة من المسائل القليلة التي على الكبار أن يتعلموها من الصغار.

والكبار – مع الأسف – بعدم إدراكهم لحجم النفع الذي يعود على الطفل من حب التساؤل يتصرفون تصرفات مؤذية تجاه هذه القضية، فيخمدون روح التطلع والاستكشاف لدى الصغار؛ فتارة يكذبون على الصغير حتى يتخلصوا من عبء التفكير في الإجابة. وتارة يجيبون بجواب خرافي، لا يمت إلى الحقيقة بصلة. وتارة ينهرونه ويزجرونه. وربما قالوا له: كفى تفلسفاً، وماذا تستفيد من كثرة الأسئلة؟ ... ونتيجة لكل ذلك يصبح الصغير مثل الكبار زاهداً في المعرفة منتظراً للتلقين، وللمعلومات القليلة التي

سيجود عليه بها أهله ومعلموه!

إذا تأملنا في سير الناجحين في الحياة وجدنا أنهم استطاعوا أن يسألوا أسئلة ذكية، هيأتهم لاستقبال أجوبة ذكية نفعتهم في حياتهم. إن معظم مراحل عملية التفكير تمر بتساؤلات وإجابات، مثل: كيف يكون ذلك؟ ومثل: يا ترى ما هو الممكن؟ ومثل ماذا يمكن أن نفعل؟ وما العقبات التي تعرقل عملنا؟

وكبت حب التساؤل هو بالتالي تدمير للأرضية الذهنية التي يمكن أن تجعل من الإنسان مفكراً حراً ومبدعاً.

لا ريب أن الأطفال قد يلقون على الأبوين بعض الأسئلة المحرجة، وحينئذ فقد لا يكون أمامهما سوى أحد طريقين: إما الاعتراف بالجهل، كأن يقول الأب: هذا سؤال جميل ولكن لا تحضرني الآن الإجابة عليه، وسوف أبحث عنه وأخبرك. وإما استخدام الحكمة، كأن تقول الأم: سؤالك ممتاز، ولكن لن تستفيد من الإجابة عليه الآن شيئاً، وعندما تكبر سوف تفهم هذه الأمور من غير مساعدة أحد. وينبغي ألا نلجأ إلى هذا أو ذاك إلا عند الحاجة. أما الأصل فهو تحفيز الطفل على المزيد من التساؤل، والعثور على أجوبة صحيحة وجيدة للأسئلة التي يلقيها.

وسيكون جميلاً أن نجري بين الأطفال خلال الرحلات والإجازات مسابقات لأفضل الأسئلة التي يوجهونها، وأفضل الأجوبة التي يمكن أن يجيبوا بها. وإن على المدارس الابتدائية - خاصة - أن ترصد جوائز لأفضل الأسئلة العلمية التي يمكن أن يطرحها طلابها.

٤- مطالبة الأبناء بأن يراقبوا دائماً النتائج التي يمكن أن يحصلوا عليها، فالجهود غير المثمرة تظل موضع تساؤل، وتظل محتاجة إلى المراجعة مهما كانت عظيمة.

٥- درس كل المشكلات على أرض الواقع، وليس من خلال التمثل الذهني، ومحاولة إيجاد حلول لها. ويمكن أن يدرب الأبناء على إصلاح بعض الأشياء في المنزل، وإدخال بعض التحسينات على بعض الوسائل، وهذه مهمة مشتركة بين البيوت والمدارس.

٢٦. البهجة المطلوبة

الكائنات الحية في حركة دائبة من أجل تحقيق الأمن والارتياح ودفع الضرر والأذى. ويأتي في مقدمتها الإنسان. والحقيقة أن لدينا ثلاثة أمور ملتبسة، هي اللذة والشعور بالرضاوالشعور بالسعادة.

اللذة هي شعور بالارتياح والنشوة يعتري الإنسان لفترة قصيرة في وقت توفر سببها، ويزول ذلك الشعور عند انتهاء سببه، كالذي يشرب الماء على ظمأ فإن التذاذه به ينتهي عندما يجاوز فمه. وحين تكون اللذة ناشئة بسبب ارتكاب محرم فإن المرء يشعر بدرجة من الكآبة والعتمة الروحية.

أما الشعور بالرضا فإنه نوع من التقدير العقلي للذات نتيجة شعور المرء بأنه ناجح ولائق في نظر نفسه ونظر الآخرين. ولذا فإنه يرتبط بالظروف الخارجية، وبموقف الآخرين منها.

أما السعادة فإنها نوع من التربع على قمة من السرور والانشراح والبهجة. وهذه المشاعر ذاتية داخلية ضعيفة الارتباط بالظروف المادية الخارجية؛ فقد يشعر بالسعادة من يعيش في خيمة أو بيت من طين. كما قد يشعر بالتعاسة والشقاء من يعيش في شامخ البنيان، ويملك الكثير من الأموال.

المصدر الأساسي للشعور بالسعادة لدى المسلم يكمن في مدى ما يحققه من المطابقة بين معتقداته وأقواله وسلوكاته. وقد ذكر بعض المفسرين أن معنى الحياة الطيبة في قوله - سبحانه -: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧]. هو السعادة.

توافق السلوك مع المعتقد يعني أن المرء يعتقد أنه على الطريق الصحيح وأنه قائم بواجباته، وهذا يمنحه قوة وصلابة في مواجهة أحداث الحياة حيث ينتظر من الله – تعالى – المثوبة والمعونة.

علينا أن نوضح هذا المعنى الجوهري لأبنائنا حتى لا ينساقوا مع تيار اللاهثين نحو سعادة موهومة، يظنونها في اللهو والسفر وارتياد المطاعم والتمسك بالمظاهر والشكليات...

إن الناس يندفعون إلى هذه الأمور من أجل التعويض عن سعادة حقيقية فقدوها، بسبب ضعف التعبد لديهم، وبسبب كثرة الذنوب والمعاصي.

وحتى يتذوق أبناؤنا طعم السعادة الحقيقية، فإن علينا أن ندربهم على ذلك؛ لنقل للولد صل ركعتين بخشوع ثم أخبرنا عن المشاعر التي أحسست بها. ولنقل له: أعط فقيراً جزءاً من مصروفك، ثم انظر بماذا تشعر. ولنقل له: ساعد شيخاً كبيراً على حمل ما معه من متاع...

وإذا وقع في خطأ أو معصية قلنا له: راقب نفسك، وتحسس مشاعر الضيق التي تشعر بها. وإذا تبت فسوف تختلف حالتك وتشعر بمشاعر مختلفة.

٢٧. تعويد الطفل الاستمرار في بذل الجهد

إذا نظرنا في موروثنا التربوي وجدنا أننا طالما مجّدنا الذكاء والعبقرية، ونظرنا إلى من يتصف بهما نظرة إعجاب وتقدير. وهذا ليس خطأ؛ ولكن الخطأ يأتي من اتخاذنا الذكاء مدخلاً لعقيدة جبرية تشل إرادة الكثيرين منا، وتصرفهم عن طلب المعالي.

وكثيراً ما سمعت من يقول: إن فلاناً ذكي ولذلك فإنه ناجح. وفلان غبي ودليل غبائه إخفاقه؛ مع أن الذكاء سبب من أسباب النجاح، وليس كل ذكي ناجحاً. والغباء سبب من أسباب الإخفاق، وليس سبباً وحيداً.

ولو أحببنا وضع النقاط على الحروف لقلنا: إن اجتماع التفوق العقلي مع بذل الجهد الفائق المستمر يؤدي بإذن الله – تعالى – إلى نتائج باهرة. وإذا تساءلنا: هل ذكاء عادي مع جهد مستمر ومنظم أعوَدُ على صاحبه بالنفع، أم ذكاء متفوق مع فوضى وجهد متقطع ومتواضع؟

أقول دون أي تردد: إن صاحب الذكاء العادي إذا نظم أوقاته، واختار المجال الصحيح لأنشطته، واستمر في الاستفادة من الفرص المتاحة.. إنه يرجى له من الخير والنفع أضعاف ما يمكن أن يحصل عليه إنسان ليس لديه

سوى عقل متوهج. وقد قال أحدهم: إن الذكاء لا ينفع الذين لا يملكون سواه شيئاً. ماذا يمكن لراعي غنم أمي أن يفعل بذكاء خارق منَّ الله -تعالى- عليه به؟ وبناء على هذا فإن علينا ألا نؤكد على موضوع الذكاء في تربيتنا، وسيكون من الخطأ البالغ تصنيف أبنائنا على أساسه، فنقول: ولدنا صالح عبقري. وولدنا محمود متوسط الذكاء. وأما خالد فهو أقل من أخويه... هذا لا يمنع بالطبع أن نكون على دراية بحقيقة الوضع الذهني لكل منهم.

الأبوان الناضجان العارفان بمهمتهما الجليلة يعرضان إعراضاً تاماً عن موضوع الذكاء، ويركزان جهودهما التربوية في هذه المسألة على الآتي:

- تعليم الأبناء الاستفادة من الفرص المتاحة والإمكانات الصغيرة.
- تعليمهم الحرص على الوقت واستثماره على أفضل وجه ممكن.
- تعليمهم بلورة أهداف صغيرة يعملون على إنجازها. وكلما أنجز الواحد منهم هدفاً وضع هدفاً آخر.
- جعل الواحد منهم يهتم بمجال معين يبذل فيه جهده وينمي خبراته.
- تعويدهم الحرص على اكتساب مهارات جديدة كلما سنحت الفرصة لذلك.

- حثهم على تخطيط حياتهم والنظر إلى المستقبل ومراجعة ما تم إنجازه ونقده.

وأنا أجزم لو أن ٥٪ من أبناء الأمة أدخلوا هذه الأمور في حياتهم الشخصية بقطع النظر عن مستوى الذكاء الذي يتمتعون به لتغير وجه الحياة في عالمنا الإسلامي، فهل من مجرب؟

٢٨. تأسيس الثقة بالنفس

المسلم مطالب بأن يزكي نفسه ويطهرها، ولا يعني ذلك أن يهينها، وأن يبخسها حقها أو يكلفها ما لا تطيق، أو يرميها بما هي منه بريئة. ومن حق المرء أن يعرف قدر نفسه من خلال تذكر إنجازاته ومعرفة إمكاناته الكامنة. وتزداد أهمية هذا الأمر إذا عرفنا أن كثيراً من الفرص يضيع، وكثيراً من الخير يفوت، نتيجة شك المرء في قدراته على الاستفادة منها.

الآباء والأمهات في البيوت مطالبون بأن يمتلكوا الكثير من الوعي والكثير من الثقافة حتى يتمكنوا من أن يرعوا أبناءهم الرعاية المثلى التي تدفع بهم في طرق النجاح والفلاح.

هناك العديد من الأسباب التي تجعل الطفل ينشأ ضعيف الثقة بنفسه، نذكر منها:

- القسوة في التربية عليه، والإكثار من زجره وضربه على الأخطاء التي يقع فيها.

- النقد المستمر له من قبل أبويه أو إخوته الكبار، وملاحقته على كل كبيرة وصغيرة حتى يتصور نفسه منغمساً في الأخطاء.

- سيطرة الأهل على كل شؤونه وحرمانه من الخبرات التي تتاح عادة لغيره من الأطفال.

- الإكثار من المقارنة بينه وبين إخوته أو أقرانه الأفضل منه حالاً.

- إيحاء أهله له بأنه غير مؤهل لأن يكون شيئاً عظيماً في المستقبل.

- صغر جسمه وضعفه وما قد يكون فيه من عاهات مثل العرَج والحوَل.

- انخفاض مستواه العقلي وتأخره في دراسته.

- كثرة المنازعات بين الوالدين في المنزل.

- تكليفه بأعمال تفوق قدراته ومواهبه.

- إن وزن كل عامل من هذه العوامل في إضعاف ثقة الناشئ بنفسه يختلف من شخص إلى آخر، ولكنها جميعاً تترك أثراً ما.

وأعتقد أن مما يساعد على بناء ثقة الطفل بنفسه الآتي:

- حنان الأبوين وحنوهما على الطفل، وإشعاره بحبهما له.

- إعطاؤه درجة من الاستقلالية في اختيار ملابسه ولعبه وعلاقاته.

- تشجيعه والثناء عليه، وتذكيره بخصائصه ونجاحاته.

- ذكر نقاط التفوق التي يتمتع بها عند مقارنته بغيره.

- تشجعيه على الممارسة العملية في ميادين الحياة المختلفة؛ لأنها تكسر حاجز الوهم، وتزيل الخوف الغريزي من المجهول.

- تنبيه الطفل إلى الأسباب التي تؤدي إلى إخفاقه، حيث إن الإخفاق المتكرر يؤدي إلى إضعاف ثقة المرء بنفسه؛ فإذا كان إخفاقه بسبب الإهمال – مثلاً – علّمه أبواه كيف يهتم بدراسته، وينظم وقته، وقاما بمتابعته في ذلك.

تعليمه أسلوب التعويض والإحلال، فإذا كان الطفل يعاني من عاهات في جسمه، وجِّه إلى التركيز على النواحي العلمية والفكرية حتى يثبت ذاته عن طريقها. وإذا كان لا يتمتع بذكاء واضح وجِّه إلى أن يكثف قراءته ويحسِّن فهمه، وهكذا...

٢٩. مساعدة الطفل على تقوية إرادته

خلق الله – جل وعلا – الناس متفاوتين في قدراتهم الجسمية والعقلية والنفسية، لكن ذلك التفاوت لا يشكل الأساس الجوهري لذلك التباين الشديد الذي نلحظه في أوضاعهم العامة. إن تفاوت أحوال الناس يعود في معظم الأمر إلى تفاوت إراداتهم وعزائمهم ووضوح أهدافهم وسعة تطلعاتهم. وللأسرة والمجتمع أكبر الأثر في الارتقاء بمستوى إرادة الأفراد، حيث إن رقي الأسرة يرقي مطالبها الحياتية، ومع ذلك الارتقاء ترتقي معايير الأداء والانضباط، وذلك كله يضع الإنسان في ظروف تتطلب منه المزيد من التحكم في رغباته والمزيد من العمل والعطاء.

إننا نعيش في زمان صعب كثير التكاليف، ولذا فإنه يتطلب درجة عالية من صلابة الإرادة والفاعلية وتجويد الأداء. وهذه الأوضاع في حالة من التعقد المستمر.

وسوف يواجه أبناؤنا – والله أعلم – تحديات أشد من التحديات التي تواجهنا، لكننا – مع الأسف – لا نملك ما يكفي من الوعي والخبرة لتأهيلهم لذلك، بل كثيراً ما نضع العصيّ في العجلات، فنخذلهم ونعوقهم

عن الاتجاه نحو ما ينبغي أن يتجهوا إليه. وقد صارت مهمة الكتّاب لا تنحصر اليوم في حث الأسر على القيام بواجبها، وإنما عليهم أن يشرحوا للآباء والأمهات ما عليهم أن يقوموا به، وهذا ما نفعله هنا.

وحتى نصلّب إرادة أبنائنا فإن علينا أن نقوم بالأشياء الآتية:

- نفتح عيون الأبناء على أن استقامة المسلم على أمر الله – تعالى – يحتاج إلى مخالفة الهوى ومجاهدة النفس، وأن الاستسلام للكسل والفوضى يعود عليهم بأوخم العواقب. وهذا الأمر يحتاج – حتى يدخل إلى طبقات الوعي العميقة – إلى المتابعة الدائمة والمناقشة المستمرة.

- نعلم الأبناء أنهم إذا أرادوا أن يتأكدوا من قوة إرادتهم، فلينظروا إلى مقدار ما يملكونه من طاقة في إكمال الأعمال التي يشرعون فيها؛ فصاحب الإرادة القوية يملك القدرة على الاستمرار في أداء ما يُلزم نفسه القيام به من أعمال؛ فهو إذا قرر أن يحفظ في كل يوم صفحة من القرآن الكريم – مثلاً – أو قراءة ثلاثين صفحة أو التدرب مدة من الوقت على اكتساب مهارة ما... يستمر في القيام بذلك بحسب ما خطط له. وإذا وجد نفسه يبدأ بالعمل ثم يتركه إلى غيره قبل إتمامه فهذا دليل على أنه ضعيف الإرادة.

- علينا أن نتبع التدرج في تربية الإرادة، فنكلف الناشئ بالأعمال الصغيرة لكن نطلب منه الالتزام الحرفي بها، وبعد مدة نزيد فيها قليلاً. وهذه أفضل طريقة لاكتساب عادات جديدة.

- نعوّد أبناءنا قراءة سير الرجال العظام الذين حققوا أعظم النجاحات؛ حيث إن النجاحات الكبرى تقف وراءها دائماً إرادات صلبة.

- نساعد الطفل على وضع برنامج للتخلص من بعض العادات السيئة وإحلال بعض العادات الحميدة في موضعها؛ لأن أية برمجة لا تقوم ولا تتغذى إلا على تدعيم الإرادة وتقويتها.

٣٠. تحمل المسؤولية

تحمل المسؤوليات المختلفة هو أفضل وسيلة لبلورة الشخصية، فمن خلال الاهتمام والممارسة والمتابعة يكتشف المرء ذاته ويثق بها، كما يكتشف نقاط الضعف فيها. وإذا ما أردنا لأبنائنا أن ينضجوا وتتفتح ملكاتهم، فعلينا أن نساعدهم على امتلاك درجة من اليقظة الشخصية نحو شؤونهم الخاصة في المقام الأول.

حين يولد الإنسان يكون بريء الذمة من تحمل أي مسؤولية نحو أي جهة، وكلما كبر وترعرع ازدادت قدراته على الإدراك والتمييز، وزادت قدراته على الفعل والكف، وهذا في حد ذاته يرتب عليه تحمل مسؤوليات كثير من تصرفاته.

أول ما على الأهل أن يوقظوا مشاعر أبنائهم نحوه هو حواسهم من السمع والبصر واللسان، وقبل ذلك القلب وما يتبع كل ذلك، فينبه الطفل منذ وقت مبكر إلى أنه مسؤول عن لسانه، فلا يكذب به، ولا يتلفظ بألفاظ نابية، ولا يرفع صوته من غير حاجة... وهكذا باقي الحواس. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ

مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

ويتدرج الأبوان في تنبيه الطفل إلى اتساع مسؤولياته؛ فالعجلة والتركيز السريع في هذه الأمور ضار جداً بالصحة النفسية للأطفال، وكثيراً ما يؤدي إلى تمرد الطفل أو سآمته أو انحرافه عند الكبر. ولعل في تعاملنا مع الطفل في موضوع الصلاة عبرة وعظة، حيث يؤمر الصغير بالصلاة وهو ابن سبع سنين؛ وإذا وجدنا استجابته ضعيفة، فربما زدنا في الحث إلى حد التأنيب الشديد، ثم إلى حد الضرب، إذا بلغ العاشرة، لكنها لا تصير فرضاً عليه، ولا يحاسب عليها حتى يبلغ.

إن الأشياء التي يمكن تحميل مسؤوليتها للأطفال كثيرة في الحقيقة، منها ما يتعلق بأموره وتصرفاته الخاصة، ومنها ما يتعلق بالأسرة والدوائر الاجتماعية الأوسع.

شيء جميل أن تحمل الأم أطفالها مسؤولية المحافظة على ثيابهم نظيفة قدر الإمكان، والمحافظة على نظافة غرفهم الخاصة وأسرّتهم، بالإضافة إلى المحافظة على كتبهم ودفاترهم وأدواتهم المدرسية. وقد يحمَّل الصغير مسؤولية شراء بعض الأشياء من البقالة المجاورة، كالخبز مثلاً. كما أنه قد يكلّف برعاية أخيه الأصغر منه، وتولي بعض الخدمات أثناء الرحلات

وهكذا..

إن من المهم دائماً أن يتعلم الأبناء كيف يقومون بشؤون أنفسهم دون الاعتماد على أحد قدر الإمكان، فذاك سمة عامة من سمات المؤمن سواء أكان صغيراً أم كبيراً؛ وقد ورد في الحديث الصحيح أن نفراً كانوا عند رسول الله ﷺ فقال: «ألا تبايعون رسول الله؟ فقالوا: علام نبايعك؟ قال: تبايعونني على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس، وتطيعوا». وأسرّ كلمة خفية: «ولا تسألوا الناس شيئاً» قال راوي الحديث: فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً أن يناوله إياه.

٣١. روح الكفاح

معظم ما وهبنا الله – تعالى- إياه متشابه إلى حد بعيد؛ والابتلاءات بالسراء والضراء يتعرض لها كل الناس، لكن النتائج التي نحصل عليها متباينة تبايناً كثيراً ما يكون كبيراً. وما ذلك إلا لأن الإنسان هو الذي يضفي على حياته نكهة خاصة في النهاية من خلال الالتزام بتعاليم الشريعة الغراء، ومن خلال الكفاح اليومي ومتابعة العمل الشاق على طريق النجاح والإنجاز.

قد مضى زمان الأشياء العادية، وجاء زمان الأشياء المتفوقة، ولذا فإن أبناءنا بحاجة إلى أن يتعلموا كيف يتميزون ويتفوقون، وكيف يتغلبون على الظروف الصعبة التي تواجههم. وأعتقد أن على المربين عامة والأبوين خاصة أن يؤسسوا لدى الطفل المفاهيم والعادات التي تضعهم في سياق مواجهة مشاق الحياة بانفتاح وإصرار وعزيمة ماضية. وحتى يتم ذلك فإن علينا أن نقوم بأمور عديدة، أهمها:

- أن نؤسس لدى أبنائنا أن وجود التحديات في الحياة شيء طبيعي، والبشرية تتقدم عن طريق الأزمات أكثر من تقدمها عن طريق الرخاء.

وأول خطوة في التعامل مع التحديات تتمثل في أن نواجهها بعقل مفتوح وبمحاولات مستمرة للفهم الصحيح مع شحنة عظيمة من الأمل والتفاؤل بإمكانية وجود حلٍّ ما، أو الحصول على ثمرة ما. وذلك في أسوأ الأحوال أفضل من الاستسلام للمشكلات أو الهروب منها.

إن المستقبل الذي ننتظره والكمال الذي ننشده والأشياء التي نرغب في الحصول عليها... إن كل ذلك ليس شيئاً ماثلاً للعيان، نمد إليه أيدينا، فنتناوله ونرتاح، وإنما هو شيء يلمع ويبرق في الأفق.

ومن خلال الجهد الخاص يتم تجسيده وتحويله إلى واقع ننتفع به وعلى مقدار ما نتعب وننصب ونتحمل المشاق يكون عظم ذلك الذي ننتظره وينتظرنا.

- إن على الأهالي في البيوت والمعلمين في المدارس أن يغرسوا في عقول الطلاب ومشاعرهم أن عصر الأشياء المجانية قد انتهى وتلاشى، وأن على كل واحد أن يدفع لكل شيء يريده ثمنه الذي يستحقه. وهذا يتطلب منا ألا نعود أطفالنا البحث عن الطرق السهلة في الوصول إلى أهدافهم، وأن نربيهم على احترام العمل الشاق وتقديره، ولو كانت نتائجه محدودة أو غير مرئية في البداية، فالعمل في حد ذاته نعمة بقطع النظر عما سوف يسفر عنه.

- لا بد أن نصلّب لدى أطفالنا روح المقاومة للضغوطات الخارجية التي يتعرضون لها؛ بالإضافة إلى مقاومة الكسل والتواكل، ومحاربة الركون إلى الطموحات الصغيرة والمغريات التي قد تصرفهم عن بلوغ أفضل الأهداف وأسمى الغايات.

- الإنسان من غير مشروع شخصي يلتزم به، ويهبه عمره ووقته يشعر بالضآلة والتفاهة، كما يشعر بأن حياته مملة ومحدودة. ومعظم الأشخاص يكونون تافهين لا لشيء إلا لفقدهم التصميم على الاشتغال بالأشياء العظيمة والكبيرة.

أكياة دار ابتلاء ودار عناء وعطاء ولا راحة لمؤمن إلا بلقاء ربه

٣٢. حب النظام

سير الحياة وفق نظم وقوانين محددة مطلب شرعي وحضاري؛ وكثير من تعليمات الإسلام في الصلاة والصيام والحج والزكاة وكذلك السنن والآداب الشرعية المطلوب الالتزام بها في الحياة اليومية – كل ذلك يضع المسلم في سياق عام يفرض عليه أن يحيا وفق أسس وأصول معينة.

الناس يكرهون الالتزام بالأنظمة، لأنها تقيد حريتهم، وتمنعهم من بعض رغباتهم... لكن الإنسان لا يترقى ولا يتجاوز أوضاع البدائيين إلا من خلال النظام الذي يعد جوهرياً في تحديد سبل وأطر لاستخدام القوة وحماية الضعفاء والاستفادة القصوى من الموارد والإمكانات المتاحة. ومن الواضح أن لتنظيم الحياة العامة وتنظيم بيئات العمل أكبر الأثر في حدوث التقدم العمراني المذهل الذي نشاهده اليوم.

نعم يجب ألا ننكر أن كثرة النظم تقتل روح المبادرة لدى الفرد، وتضعف طلاقته الروحية. إن الطفل يأتي إلى هذه الحياة وهو يرغب في أن يحياها كما يحب؛ وبرمجة ذهنه ومشاعره وفق ما يحب أن ينشأ عليه من أخلاق وآداب وأعراف تلقى منه الاستنكار والاستهجان في كثير من الأحيان؛ ولذا فإنه من المهم أن نحبب إليه طاعة النظم والقوانين التي تخدم حياتنا العامة بأسلوب رفيق، ونبين له باستمرار مخاطر الفوضى على حياة الناس. وعلينا حتى نحصل

على ذلك أن نفعل الآتي:

- من مسؤوليات الأم إشاعة النظام في بيتها، فتجعل وقتاً محدداً لتناول وجبات الطعام، كما تجعل وقتاً لنوم الأطفال وأوقاتاً ينهون فيها مذاكراتهم وواجباتهم. إن مثل هذه الترتيبات والتنظيمات ترسخ في حسّ الأبناء معاني الانضباط والاهتمام بالوقت.

- أن نبين للأبناء باستمرار الفوائد التي تعود عليهم من وراء التزامهم بالنظام، مثل عدم ضياع شيء من الواجبات والمسؤوليات واستغلال الوقت واختصار الجهد المبذول وحسن المظهر، وما شاكل ذلك.

- تعويد الطفل على النظام في شؤونه الشخصية، مثل متابعته على الالتزام بتنظيف أسنانه قبل النوم، وتنظيم محتويات غرفته إلى جانب تنظيم مصروفه ونحو ذلك. وعندما يكبر الصغير نساعده على تنظيم أوقات للقراءة والمطالعة والتثقف والعلاقات الاجتماعية...

- استغلال ما تبثه بعض وسائل الإعلام من مشاهد الخروج على النظام والعدوان على الآخرين في بيان مساوئ الخروج على النظام وتجاوز القوانين المرعية، ومحاولة إثارة بعض المناقشات المنزلية حول ذلك.

٣٣. تربية الانسان الايجابي

الوضعية العامة لأمة الإسلام تبني لدى الأطفال النفسية السلبية، فالصغير لا يسمع من أبويه منذ تفتح وعيه سوى كلمات التلاوم والشكوى من سوء الأحوال، والتأفف من هيمنة الأعداء، إلى جانب التذمر من سوء الخدمات التي تقدم للناس... وهكذا يشعر الطفل أن كل شيء مقلوب رأساً على عقب؛ ولذا فإنه يتعلم التذمر والقوقعة، ويفقد روح المبادرة الشخصية. ومع الأيام يكبر الصغير ويصبح جزءاً من مشكلات الأمة عوضاً عن أن يسهم في حلها! لهذا كان لا بد أن نكسر حلقة في السلسلة الرديئة عن طريق التربية الجيدة في البيوت والمدارس.

من هو الشخصي الإيجابي؟

الشخص الإيجابي: هو ذلك الشخص الذي يتمتع بالهدوء والاتزان والثقة بالنفس والإنصاف، إلى جانب الانفتاح والتقبل للأفكار الجديدة، والتحلي بروح المبادرة. الشخص الإيجابي قادر على السماع والحوار، وهو دائماً يشعر بأنه قادر على أن يغير ما يحتاج إلى تغيير في حياته، كما أنه يؤمن بتجدد الفرص، ولذا فهو لا ييأس أبداً، ويعتقد أن هناك دائماً إمكانات جديدة

للارتقاء والتقدم. وهو نتيجة لكل ذلك يملك قدرة كبيرة على التكيف مع الأوضاع الجديدة. هذا هو الشخص الإيجابي – في نظري – فكيف نربيه؟

في اعتقادي أن عقلية الطفل ومشاعره تتغذى بالتوجه الإيجابي أو السلبي من خلال وضعية الأسرة ونظرتها للحياة، ولذا فإن علينا ألا نمل من التأكيد على أن التربية عملية خطيرة، ولا ينفع فيها الذكاء المجرد من غير ثقافة تربوية جيدة، ومن غير اهتمام بالتفاصيل الصغيرة التي لا يلقي لها بالاً معظم الأشخاص العاديين.

ومما يساعد على تكوين الإنسان الإيجابي:

١-اعتياد أهل البيت للحوار والمناقشة في مختلف القضايا، وتقليب وجهات النظر فيها.

٢- تخفيف النقد والتركيز على البناء. وسيكون من السيء جداً ألا يسمع الطفل في أسرته سوى الكلام على الناس، ثم ينظر فلا يرى أن أهله يفضلون غيرهم في أي شيء.

٣-تعويد الأبناء ممارسة المقارنة، فإذا ذكر أحدهم ميزات أمر من الأمور قلنا له: وما هي سلبياته؟ وإذا تحدث عن سلبيات شخص من الأشخاص أو

طريقة من الطرق... سألناه عن الإيجابيات، وإذا لم يجد نبهناه إليها وعلمناه.

٤-بث روح التفاؤل والأمل في نفس الطفل، وجعله يعتقد أن في كل جدار باباً يمكن أن ينفتح، وأن اليأس ليس من خلق المسلم، كما أنه ذريعة للكسل والخمول والقعود.

٥-تحفيز الطفل أن يبادر بنفسه للقيام ببعض الأعمال الحسنة من غير توجيه من أحد، مثل أن يضع الماء على المائدة، وأن يستعد للذهاب إلى المدرسة من غير مساعدة أحد، وأن يسهم في ترتيب المنزل...

٦- أن نذكر أمامه دائماً محاسن التغيير والتجديد، وأن بإمكاننا من خلال الاستفادة من الأشياء الجديدة أن نصبح أكثر التزاماً وأكثر نجاحاً وتفوقاً.

٣٤. ترشيد التوجه المعرفي

من المهام الأساسية للآباء والأمهات التعرف على ميول أبنائهم الحقيقية، والوقوف على قدراتهم ومهاراتهم، وأخذها جميعاً بعين الاعتبار عند توجيههم وإرشادهم إلى التخصص، أو العمل الذي يمكن أن يتجهوا إليه في المستقبل. وسيكون بإمكانهم معرفة ذلك من خلال الدرجات التي يحصل عليها الطفل في المدرسة، ومن خلال ألعابه، وما يَظهر من اهتماماته أثناء أوقات الفراغ والإجازات.

إن من الثابت أن لدى كل واحد من الناس جانباً إبداعياً في شخصيته؛ فإذا رعي حق الرعاية، ونال ما يستحقه من الاهتمام والصقل أتى منه ما يفوق التوقع.

إن الأهل حين يتمكنون من ذلك يوقفون اندفاع أبنائهم نحو تعلم ما لا يناسبهم أو العمل فيما لا يعود عليهم بالنفع والخير. ويذكرون في هذا السياق، أن مالك بن أنس صاحب المذهب قال لأمه حين كان صبياً: أحب أن آتي أحد المغنين، فأتعلم منه الغناء، فقالت له أمه المرأة الصالحة: يا بني إن الناس لا يستحسنون الغناء إذا خرج من لحية وشارب (أي لا يستحسنونه من

الرجال). ولكن اطلب العلم بالدين. وحين هداه الله لذلك جاءت فألبسته شيئاً مما يلبسه طلاب العلم في تلك الأيام، ووضعت له على رأسه عمامة، وقالت له: اذهب فاطلب العلم الآن. وكانت تقول له: اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه. وقد نفع الله – تعالى – مالكاً بتوجيه أمه حتى صار أحد أئمة الدين وواحداً من كبار أعلام المسلمين.

إن توجيه الطفل نحو ما يجب أن يتعلمه ويتقنه قد يكلف المال الذي قد لا يتوفر لدى الأسرة بسهولة؛ ولا بد آنذاك من التضحية والتحمل وتدبر الأمر في سبيل أن يتعلم الولد ما يناسبه ويلائمه. وقد أخرج الإمام أحمد بسنده عن وكيع قال: قالت أم سفيان الثوري (المحدث الفقيه المشهور) له حين كان صغيراً: «يا بني اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي». فكانت -رحمها الله- تعمل في الغزل، وتقدم له ما يتطلبه تفرغه للعلم.

الأبوان مطالبان بأن يشيعا في منزلهما حب العلم النافع من خلال تكوين مكتبة جيدة في المنزل، تشتمل على كتب في العلوم الشرعية الأساسية، إلى جانب بعض الكتب الفكرية والأدبية وكتب تنمية الشخصية كما أن للأحاديث العائلية أثراً كبيراً في تنمية حب المعرفة لدى الأطفال. وهناك فرق كبير بين أطفال لا يسمعون من أبويهم وإخوتهم الكبار سوى الأحاديث عن

الأفلام والمسرحيات والسيارات وأسعار الخضار... وبين أطفال يدير أهلهم الأحاديث حول مسائل الالتزام والسلوك القويم والنجاح والعولمة والمستقبل.

إن أحاديث الناس في البيوت تثير الأخيلة، وتصنع الآمال، وترسخ التوجهات، فلنعرف عن أي شيء نتحدث، ولنتلمس الآثار التي تتركها أحاديثنا في نفوس الصغار.

٣٥. حاجة الطفل إلى التعاطف

يولد الطفل وهو ناقص الإنسانية، ومن خلال تلبية حاجاته المختلفة تكتمل إنسانيته وهذا والله يلقي على المربين تبعات جساماً.

إن من مهماتنا أن نشعر الطفل أنه محبوب ومرغوب فيه، وأننا مغتبطون بوجوده بيننا. والخالق – جل وعلا – زود الطفل بإمكانية التعلق المبكر بأمه على وجه خاص، حيث أثبتت بعض الدراسات أن الصغير يتعرف على والدته منذ الساعات الأولى لولادته بواسطة الشم، وتبدأ بعد مدة سلسلة التوقعات التي لا تنتهي، فهو ينتظر من كل من حوله – ولا سيما أمه – الرعاية والعطف والحنان. إنه بحاجة إلى من يهش له ويبش في وجهه، ويتحدث إليه ويلاغيه، ويداعبه ويدلله بقدر حاجته إلى الطعام والشراب. وعلى قدر ما نمنحه من الحب والعطف يصبح في المستقبل راضياً عن نفسه محباً للناس.

أما الطفل الذي لا ينال ما يستحقه من ذلك فإنه يصبح بارد العواطف ضعيف التجاوب.

ويبرز في سيرته ﷺ اهتمام عجيب بالأطفال فقد كان يصلي – في بعض الأحيان – بالناس وهو حامل أمامة بنت زينب ابنته، فإذا سجد وضعها، وإذا

قام حملها. وروى مسلم أن الناس كانوا إذا رأوا أول الثمر جاؤوا به إلى النبي ﷺ فإذا أخذه قال: «اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا» ثم يدعو أصغر وليد له ويعطيه ذلك الثمر.

الأم الفاضلة تربي طفلها من خلال البسمة والنظرة والهمسة، وتؤسس علاقة رهيفة جداً بينها وبينه من خلال ذلك. والأب الفاضل يضم ولده إلى صدره ويقبّله ويلاعبه ويصبر على ما يصدر منه من خطأ أو تصرف غير مناسب! وهما معاً يحتسبان ذلك عند الله تعالى.

الطفل بحاجة أيضاً إلى أن يكون محباً، وتوددنا إليه وملاطفتنا له، وتعرضنا له باستمرار يغريه بحب أبويه، ويسعده أيما إسعاد. والدمية الصغيرة حين توضع في يد الطفلة تضفي عليها الطفلة من حنانها الشيء الكثير، فتشبع هذه الحاجة لديها.

إن من واجبنا أن نمنح حبنا وعطفنا ورعايتنا لأيتام المسلمين، أولئك الذين حرموا من لمسة الحنان وعطف الأبوة والأمومة! ومن استطاع أن يكفل يتيماً فليفعل فإن الأجر على ذلك عظيم، وحسبك في هذا ما أخرجه البخاري من قوله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى.

٣٦. منح الأطفال التقدير والتشجيع

من الأقوال الرمزية: كل شخص يولد وعلى جبهته علامة تقول: من فضلك اجعلني أشعر أنني مهم. كلما حدث اتصال بين الناس تناقلوا بينهم رسالة صامتة تقول: فضلاً زكني، لا تمرر بي غير آبه؛ أرجوك اعترف بكياني. وكأن الواحد منا يحتاج إلى التقدير والاعتراف من الآخرين؛ لأنه غير متأكد من مكانته لديهم. والطفل يرغب في أن يتأكد من ذلك، ويرغب أيضاً في أن يتأكد أنه على الطريق الصحيح؛ ولذا فحاجته إلى التقدير أشد من حاجة الكبار. وقد كان من شأنه ﷺ أن يلقي السلام على الصغار، كما كان يداعب بعضهم أحياناً؛ وفي ذلك إشعار لهم بأهميتهم.

إن الطفل ليس ناقص المشاعر، وإن يكن ناقص الخبرات؛ فهو يشعر بما يشعر به الكبار؛ ابن سنة إذا عبّست في وجهه، وقطبت حاجبيك بكى، لأنه شعر أن وضعية وجهك تعني الغضب.

الطفل الذي تعود مواقف المذلة من مربيه وذويه يُستنفد رصيده كله، فتضيع فيه بالتالي جهود المربين. وحين يمتلك مشاعر العزة والأنفة، فإنه يمكن آنذاك أن نقول له: هذا لا يليق بك، ومثلك لا يفعل هذا؛ ويكون لهذا

الكلام معنى لديه.

الطفل في حاجة إلى التشجيع والثناء على ما يقوم به من أعمال، فذاك يغريه بالمزيد من العمل الصالح؛ فإذا حفظ الطفل جزءاً من القرآن قدمنا له هدية. وإذا تفوق في دراسته أشدنا به وكافأناه. وإذا قدم لنا كأس ماء قلنا له شكراً. وقد علمنا نبينا ﷺ هذا، حيث أخرج الشيخان عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: أتى النبي ﷺ الخلاء، فوضعت له وَضوءاً – أي ماء يتوضأ به – فلما خرج قال: من وضع هذا؟ فأُخبر فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل».

وحين رأى عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – رؤيا قصها على أخته حفصة، فقصتها على النبي ﷺ فقال: «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل». قال سالم فكان عبد الله لا ينام من الليل إلا قليلاً. إن ثناء النبي عليه دفعه إلى المزيد من التعبد وفعل الخير.

٣٧. يجب أن يكون البيت بيئة آمنة

ركز البارئ – سبحانه – في فطرة الطفل حب اللعب، والشعور بالحاجة إلى المغامرة والمخاطرة، وذلك حتى ينمو ويغتني بالتجارب، ويدخل عالم الكبار. وأنشطة الطفل قد لا تخلو – في بعض الأحيان – من شيء من الخطورة؛ ولذا فإن على الأم – على نحو أخص – ألا تتضايق من كثرة حركة ولدها، ولكن تراقب الألعاب التي يمكن أن تؤذيه، وهذا يتطلب منها أن تجعل من بيتها بيئة آمنة للعيش، فلا تترك الأدوات الحادة والأدوية بين يدي الطفل، وتراقب النوافذ المنخفضة التي يمكن أن يصعد إليها الطفل، ويسقط بالتالي منها. وكذلك على الأم أن تعطي انتباهاً خاصاً للنار وإمكانية إشعال الصغير لها، أو وضع يده فيها، بالإضافة إلى الانتباه إلى اقتراب الطفل من بعض الأجهزة الخطرة، مثل فرامة اللحم والمروحة.

إن حاجة الطفل إلى الأمن حاجة ماسة جداً؛ والحقيقة أن هناك سلسلة متناوبه بين المخاطرة والأمن، فهو كلما أمن خاطر، وكلما خاطر احتاج إلى الأمن. ويجب أن نجعل الطفل يشعر في كل الأحوال أننا نِعْمَ العون ونعم المأمن والملجأ له. وحتى نشيع الأمن في نفس الطفل وفي حياته، فإن علينا أن

نتجنب كل ما يثير لديه المخاوف نحو:

- تهديد الطفل بحادث شنيع، كأن نقول له: إذا خرجت دعسك القطار، أو خطفك مجرم.

- أي فعل مفاجئ، مثل صوت عال، سقوط مفاجئ، صفارة إنذار، جرس حريق. وحين يسمع ذلك من غير المنزل فعلينا أن نطمئنه ونؤمّنه.

- خوف الكبار، حيث إن الأم حين تظهر خوفاً مفاجئاً من فعل أو صوت، كالرعد مثلاً فغالباً ما يخشى الطفل الصوت نفسه؛ إذ إن الطفل يعتقد أنه إذا كان الشخص الكبير الذي يعتمد عليه يخاف من ذلك الشيء، فلا بد أن يكون شيئاً مخيفاً حقاً. ومن الملاحظ أن الأم التي تخاف من الظلام، أو من بعض الحشرات المنزلية، أو الرعد، أو البرق... تورث ذلك لأطفالها؛ ولذا فإن عليها أن تتخلص من ذلك.

- بعض القصص والأحاديث التي يسردها الكبار، والتي تشتمل على أشياء هي في نظر الطفل خطيرة، مثل حديث الأم عن نزيف حدث معها أثناء خلع ضرس، أو حديث عن الحرب، أو الغارات الجوية...

- الخلاف العنيف بين الوالدين الذي يستخدم فيه الضرب والتهديد

والشتم... وهذا في الحقيقة من الأمور التي تبعث في نفس الطفل مزيجاً من الخوف والحزن حيث ينوء كأهله بشعور غامض يحطم أعصابه ويؤرقه ويحيره.

الأم بخبرتها وحنكتها تستطيع أن تجعل من بيتها روضة غنّاء يسرح فيها أطفالها، ويتعلمون فيها كل ما ينفعهم. وبإمكانها بإهمالها وجهلها أن تجعل من بيتها بيئة سيئة تدفع الأطفال دفعاً إلى الشارع؛ حيث يشعرون أن بيتهم ليس البيت المناسب للحياة المطلوبة!

٣٨. اللمسة الجمالية

من المهمات التربوية للأسرة تكوين مشاعر التمدن والتحضر لدى الطفل من خلال تنمية أحاسيس الجمال والأناقة لديه. وهي أحاسيس تتكون لدى الطفل منذ الشهور الأولى من ولادته من خلال ملاطفة الأبوين له وطريقة اقترابهما منه.

الجمال هو الحيوية التي في إمكانها التغلغل في كل الأشياء. وإن أشد الأمور قسوة ومرارة يظل قابلاً لإضفاء المسحة الجمالية عليه؛ قال الله – جل وعلا-: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]، الهجر نوع من القطيعة ومع ذلك يمكن أن يكون جميلاً إذا لم يصاحبه عتاب. وقال – سبحانه – : ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥]، الصبر يكون جميلاً حين لا تصحبه شكوى لغير الله. المدنية التي جاء بها الإسلام روح يسري في كيان الفرد فيعطيه طابعاً خاصاً، يلمسه الناس في كل شؤونه: في طريقة كلامه وعباراته المنتقاة، وفي أسلوب استماعه، وأسلوب تناوله لفرصة التحدث، وفي كيفية قيادته لسيارته وطريقة حصوله على حقه وطريقة تنبيهه للمخطئ وطريقة حله لمشكلاته...

اللمسة الجمالية تجعل تصرفات الإنسان أكثر نعومة وشفافية حيث يرتقي إحساسه بالآخرين.

تستطيع الأم الفاضلة تكوين اللمسة الجمالية لدى طفلها من خلال تنظيم البيت الذي تعيش فيه الأسرة، حيث إن المنزل المضطرب الفوضوي وغير النظيف لا يساعد ساكنيه على الإحساس بالجمال. وتستطيع فعل ذلك من خلال تعليمه لبس الثياب ذات الألوان المتناسقة، ومن خلال حثه على أن تكون أشياؤه الخاصة منظمة ونظيفة. ويأتي في قمة الوسائل التي تساعد على تكوين الحس الجمالي لدى الأطفال لغة الخطاب السائدة في المنزل حيث إنها تحكي المستوى التمدني الذي بلغه أهل ذلك البيت. وقد ورد نهي النبي ﷺ عن أن يقول المسلم: عبدي وأمتي، وأن عليه أن يقول عوضاً عن ذلك: فتاي وفتاتي من أجل الارتقاء بلغة الخطاب. التعبيرات الرشيقة والشفيفة تبعث في نفس الطفل مشاعر السمو والرفق والخير والنعومة والأناقة؛ ولك أن تقارن معي بين نوعين من التعابير تستخدم أحدهما أم صالحة عارفة بمهمتها التربوية وتستخدم الثاني أم أخرى.

- إذا غضبت الأم الصالحة قالت لأولادها: هداكم الله، أصلحكم الله. أما الأم الأخرى فتدعو عليهم، وتقول: أرجو الله أن يبتليكم بالمصائب

والدواهي.

- الأم الصالحة تقول: المسلم المؤدب يفعل كذا وكذا حتى يدخل الجنة. أما الأم الأخرى، فإنها تهدد وتتوعد، وتقول: الذي يجب أن يُضرب يفعل كذا وكذا.

- إذا أخذ الطفل ما ليس له قالت له الأم الصالحة: هذا ليس لك، هذا ليس من حقك، ردَّه على صاحبه.

أما الأخرى فتقول له: يا لص يا حرامي...

إن علينا بعد هذا وذاك أن نعلم الطفل أن أفعال الخير تشكل قمة الجمال، وأن الرفاهية الروحية لا تأتي إلا إذا تجاوزنا الواجب إلى الأعمال التطوعية. كما أن علينا أن نوضح للطفل أن كل شكل من أشكال المعصية وكل شكل من أشكال التقصير في القيام بأمر الله موصول بشكل من أشكال القبح. وسيكون من المؤسف أن يبرق كل شيء في حياتنا ويلمع، وتظل قلوبنا خاوية مظلمة.

٣٩. تكوين الشخصية الناجحة

على مدار التاريخ ظل النجاح شيئاً مبهجاً ومطلوباً. وما أظن أنه مرّ على البشرية زمان كان النجاح فيه ملحاً أكثر من زماننا هذا، حيث إن المسافات بين الناجحين والمخفقين تزداد باستمرار؛ ولذا فإن شقاء الذين يعيشون في القاع، ويرضون بأي شيء سوف يزداد. والعولمة التي تخترق العالم طولاً وعرضاً همشت كل الأشياء العادية، وأعطت أهمية متزايدة لكل الأشياء المتقدمة. ومن وجه آخر فإن من طبيعة التقدم الحضاري أنه يأتي بالمزيد من الفرص مقرونة بالمزيد من التحديات. واغتنام الفرص يساعدنا على مواجهة التحديات؛ ومن لم يستفد منها فعليه أن يُعد نفسه لمواجهة تحديات مضاعفة. إن من شأن الاهتمام بتطبيق الأفكار والأساليب الواردة في هذا الكتاب أن يفضي إلى تنشئة الولد الصالح الناجح -بإذن الله تعالى- لكن أحببت أن أذكر هنا بعض المفاهيم والأسس التي على الأبوين تركيزها في عقل الطفل ونفسه نظراً لأهميتها الخاصة، ومنها:

١- ليس التفوق والنجاح في ميادين الحياة المختلفة مطابقاً للإبداع، فقد يكون المرء عبقرياً، ولا يكون ناجحاً. وقد يكون ناجحاً، ولا يملك سمات

العبقري.

٢- ليس المهم أن يكون لدى الإنسان الكثير من الإمكانات والموارد، ولكن المهم هو توظيفها وإدارتها على أحسن وجه ممكن. والإدارة الجيدة مهارة يمكن اكتسابها.

٣- الفرص في الحياة كثيرة بالنسبة إلى اليقظ المؤهل للاستفادة منها، لكنها قليلة جداً بالنسبة إلى الكسالى والفوضويين ومحدودي الطموحات، ولذا فإن تحفيز الأبناء نحو الفرص التي تلوح أمامهم من مهمات الأبوين على نحو أخص.

٤- أعظم أشكال التفوق هو التفوق على الذات. وهو لا يأتي إلا من خلال الالتزام بالتحسن الدائم. ولذا فإن الشخص الناجح لا يقتنع بالوضعية التي هو عليها، ويتطلع دائماً إلى ما هو أفضل وأرقى.

٥- كل النجاحات في هذه الدنيا لا تكون حقيقية إلا إذا عززت النجاح الأخروي، ولهذا فإن النجاح الحقيقي نجاح مقرون بالصلاح، وطرق الحصول عليه يجب أن تكون دائماً مشروعة.

٦- ليس هناك ناجحون لا يهتمون بالوقت، ولا يحرصون على الاستفادة منه على نحو مقبول.

٧- للناجحين دائماً أهداف. وسواء أكانت قصيرة أم بعيدة المدى، فهي تتسم دائماً بالوضوح، كما أنها مرنة والوصول إليها ممكن.

٨- يؤمن الناجحون بأن النجاحات الصغيرة حين تتراكم تتحول إلى شيء عظيم، ولذا فإنهم يحرصون على العمل الدائب، ولا يزهّدهم فيه قلة ما يمكن أن يحصلوا عليه منه.

٩- سلوك الناجحين منطقي، فهم يؤهلون أنفسهم للنجاح، ويكتسبون المهارات التي تتطلبها الأعمال التي يريدون القيام بها.

١٠- يتمتع الناجحون بالإرادة الصلبة، وحين يلتزمون بعمل فهم يملكون الطاقة على الاستمرار في إنجازه.

إن على الأبوين أن يربوا أطفالهم على هذه المعاني، ويحاولوا جعلها جزءاً من مفاهيمهم عن الحياة، وجزءاً من سلوكهم الشخصي، وسيجدون خيراً عظيماً لذلك بحول الله

٤٠. تربية الشعور بالانتماء للعائلة

في عصر العولمة تجري عمليات خلع منتظمة وبطرق كثيرة. ومن الواضح أن العولمة تسعى إلى إضعاف رابطة الفرد بأسرته وإضعاف رابطة الأسرة بالمجتمع، والمجتمع بأمته الكبرى، وذلك من أجل إعادة صياغة كل ذلك على مقتضى مصالح المنتفعين من العولمة. ولذا فإن من واجبنا في البيوت أن نجعل الأبناء يشعرون بانتماء قوي لأسرهم. وهذا في تصوري يأتي من خلال الجو الأسري العام، فالطفل يحب أسرته ويعتز بالانتماء إليها على مقدار صلاحها ونجاحها في احتضانه وتربيته. وهذا لا يتم إلا إذا توفرت في الحياة الأسرية بعض المعاني والتي منها:

- احترام كل واحد من الأبوين للآخر، ومعاملته على مقتضى الآداب الشرعية والأخلاق الإسلامية، وعلى مقتضى العهود والمواثيق التي جمعت بينهما في أسرة واحدة. ومن الواضح جداً أن عدم توفر هذه السمة يشجع الطفل على الاجتراء على أبويه، ويجعل اهتمامه بما يقولانه له ضعيفاً؛ بل إن الطفل يتعلم عدم احترام الآخرين الذين يعيشون خارج الأسرة.

- ممارسة كل واحد من الأبوين لمسؤولياته الأسرية، حيث إن تعب الأب في تحصيل الرزق، وكدحه في سبيل تحصيل لقمة العيش، يجعل الأبناء يشعرون بالامتنان له وتقديره والارتباط به. كما أن حنو الأم على أطفالها والقيام على رعايتهم وخدمتهم يولّد نحواً من تلك المشاعر، ويجعل الطفل يشعر أنه يعيش تحت مظلة من الأمان المتكامل؛ ويزيد كل ذلك في ولائه

لأسرته وتعلقه بها، والإحساس بشرف الانتماء إليها.

- حسن استخدام موارد الأسرة وحسن تصرف الأبوين بالدخل المتاح لهما، حيث إن من المعروف أن كثيراً من الأسر يكون رزقها وفيراً، لكن ينقصها إدارة ذلك الرزق على الوجه المطلوب، وإنفاق دخل الأسرة على نحو يلبي كل حاجاتها. وكم شاهدنا من الآباء من يحرم أولاده من بعض حاجاتهم الأساسية؛ لأنه أنفق ما توفر لديه من مال على شؤونه الخاصة، أو لأنه وضعه في غير موضعه. والطفل كثيراً ما يكون عاجزاً عن فهم ذلك الخلل، وإنما يفسر حالة العوز على أنها تقصير نحوه، وبذلك يشعر أنه دون الأطفال الآخرين، وأن أسرته دون الأسر الأخرى.

- معاملة الطفل من قبل الأبوين بتقدير واحترام تجعله يشعر أنه يعيش في بيت يستحق الاحترام والتقدير. وحين يكون الأب ممن يفرط في استخدام الضرب لأولاده، أو تكون الأم ممن يكثرن السب والشتم، فإن تعلق الطفل بهما وحرصه على رضاهما سيكون ضعيفاً.

- توفر معنى الحياة العائلية من خلال استمتاع أفراد الأسرة بالجلوس مع بعضهم، ومن خلال انتظار عودة الغائب من أفرادها بشوق والاتصال بالبعيد، والوقوف مع المأزوم والمكروب منهم موقف المؤازر والمناصر.

٤١. التضحية والإيثار

ستظل الدنيا ضيقة مالم نفتح لها نافذة على الآخرة، وسيظل الناس يتنافسون على المال، ويتقاتلون عليه، لأن المعروض منه سيظل أقل من المطلوب. ولن نعيد التوازن إلى حياتنا الاجتماعية، ونصلح الخلل الذي يسببه الظلم الاجتماعي، إلا إذا نمينا في أنفسنا وأنفس من نقوم على تربيتهم خلق البذل والتضحية والإيثار، انتظاراً لموعود الله – تعالى – بالتعويض في الدنيا، والأجر العظيم في الآخرة.

التضحية تنبع من شعور المرء بشرف الانتماء إلى أمة الإسلام، ومن شعوره بالواجب نحوها. وفي تاريخنا الإسلامي مواقف جليلة للأم المسلمة دفعت فيها فلذة كبدها إلى ساحات الوغى والجهاد، وهي كثيرة جداً، لكنها مجهولة لدى معظم الناس؛ والمعروف منها يثير الإعجاب؛ فقد روى ابن أبي شيبة أن امرأة دفعت إلى ابنها يوم أُحُد السيف، فلم يطق حمله، فشدته على ساعده بنسعة، ثم أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله هذا ابني يقاتل عنك (أي يدافع عنك) فقال له – عليه الصلاة والسلام – أي بني احمل ها هنا، أي بني احمل ها هنا (يوجهه إلى مواطن القتال) فأصابت الغلام جراحة فأُتي به إلى النبي ﷺ فقال: أي بني لعلك جزعت (أي لم تصبر على ما أصابك) فقال: لا يا رسول الله!

الإيثار يعني أن يقدم المرء غيره على نفسه في بعض حظوظه الدنيوية، وهو ينشأ عن قوة اليقين والرغبة فيما عند الله، والصبر على المشاق. وقد أثنى الله –

تعالى – على حب الأنصار لعمل المعروف وتقديمهم إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وهل هناك في الإيثار أكثر من أن يقدم المرء عشاء أولاده لضيفه – كما فعل ذلك أحد الصحابة – ويطفئ السراج حتى يوهم ضيفه أنه يأكل معه، فينام هو الآخر طاوياً؟!

إن الفردية التي تشيع في عصرنا يمكن أن تنقلب بسهولة إلى أنانية مشينة. ولذا فلا بد من أن نتدارك أمرنا من خلال تربية خلق التضحية والإيثار لدى أبنائنا الصغار؛ وذلك من خلال سلوكنا الشخصي أولاً حين تؤثر الأم راحة زوجها وأبنائها على راحتها، وحين يؤثر الأب ابنه على نفسه ببعض الإنفاق... سيكون من الجميل أن تأكل الأسرة في يوم من أيام الأسبوع من حاضر الرزق في البيت، وتتصدق بقيمة (طبخة) ذلك اليوم لتنعم أسرة فقيرة بطعام لا تحصل عليه في العادة. علينا أن نعوّد الطفل التنازل عن بعض حلواه لابن الجار، وأن يتيح بعض لعبه لأبناء الضيوف ليستمتعوا بها. وإذا حدَّثنا عن صدقة تطوع بها شكرناه وحمدنا له ذلك وحثثناه على المزيد.

٤٢. الكرم والأريحية

لن تستطيع أمة الإسلام أن تنهض بدون تفجير ينابيع الكرم والتسامح والأريحية في علاقاتها الاجتماعية. وإذا تعاملنا كما يتعامل التجار: كل شيء بثمن، أو تعاملنا بالعدل المطلق: كل مخطئ يدفع ثمن خطئه، فإن حياتنا الاجتماعية سوف تفقد ألقها ورواءها، وإن أموراً كثيرة حينئذ سوف تلقى الإهمال، لأنها لا تدخل في اختصاص أحد.

الكرم والتسامح والأريحية خلالٌ تتصل على نحوٍ ما بالعطاء المجاني غير المشروط. إنها تجاوز للحقوق ولقواعد العدالة الضيقة والمعلومات الحرفية المتوفرة، وتجاوز لمعطيات الماضي والحاضر، وتغافل عن الأخطاء والإساءات، تجاوز لكل ذلك نحو إعذار الآخرين، ومحاولة إدراك الظروف والصعوبات التي تحيط بهم، ومحاولة النظر إلى الأمور من الزاوية التي ينظرون منها. إنها نوع من الثقة بوجود شيء من الخير لدى كل إنسان، وأن حسن الطوية هو الأساس.

لا ريب أن ذوي الأريحية وذوي الكرم الذاتي يتهمون بتهم عديدة، منها: أنهم سطحيون، ينظرون إلى الظواهر، ولا ينظرون إلى ما يختبئ تحتها من شر

ومكر وخداع؛ ولهذا فخداعهم دائماً سهل. كما أنهم يتهمون بالحمق، لأنهم يعمدون قصداً إلى عدم رؤية الشر، وكأنهم بذلك يعطلون عقولهم حين يغضون الطرف عن معايير الخير والشر والصواب والخطأ.

هذه التهم لذوي الأريحية وذوي النيات الطيبة، لا تخلو من شيء من الصواب. وليس على كل الناس أن يكونوا على مذهب عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في الطيب والنبل واليقظة العظيمة: «لست بالخب ولا الخب يخدعني». ولكن إذا قارنا بين صورة التسامح والأريحية وما يمكن أن تنطوي عليه من مآخذ، وبين صورة الشح واللؤم وسوء الظن والانغلاق على المصالح الخاصة والتصرف على مبدأ: «ليس هناك شيء مجاني» لو قارنا بين الصورتين لوجدنا أن من الخير للإنسان وللمجتمع أن يتخلق بأخلاق الكرماء المتسامحين الذين إن أخطؤوا في تقدير الأمور أحياناً، فهم على صواب في حسن نياتهم ونقاء سرائرهم وحبهم للناس في كل حين.

تعميم هذا الخلق العظيم يقتضي أن نشيع في بيوتنا المعاني والمفاهيم التالية:

– في كل إنسان شيء من الخير، ولم يجعل الله – تعالى – الفضائل حكراً على قوم من الناس دون غيرهم، كما لم يجعل الشرور وصمة لأقوام دون

غيرهم. وسيكون من الخير لنا أن نرى في الناس العنصر المشرق في حياتهم، لأنه هو وحده الذي يساعدنا على إقامة علاقات طيبة معهم.

- إن أية خدمة نقدمها لأي مسلم مأجورة من الله - تعالى - إذا أخلصنا النية. وعلينا ألا نمل من ترداد الآيات والأحاديث الواردة في إكرام الضيف، والإحسان إلى الجار، وكفالة اليتيم، وإغاثة الملهوف، والقرض الحسن، وعيادة المريض... حتى تتفاعل في نفس الطفل وتتغلغل إلى أعماق شعوره.

- نحب للناس ما نحبه لأنفسنا، ونساعد الزملاء على الارتقاء والتقدم، ونعد نجاح أي مسلم نجاحاً لكل المسلمين.

- نبتعد عن الغيبة وتتبع عورات المسلمين، ونلتمس لهم الأعذار، ولا نلوم إنساناً على أعمال وأمور أُكْرِه عليها، أو اضطر إليها.

- نبتعد عن معاني الإقليمية والقبلية والعنصرية في تقويمنا للأشخاص والتعامل معهم. ولكل إنسان حق، وللمسلم حق إضافي، كما أن للقرابة والأرحام حقوقاً أخرى؛ وعلينا أن نعطي كل ذي حق حقه.

٤٣. الحرص على صحة الأطفال

صحة الأطفال أمانة بين يدي الأبوين؛ وينبغي عليهما أداء تلك الأمانة على الوجه المطلوب، ولا سيما أن الغش في الأطعمة قد بلغ مستويات خطيرة في أنواع كثيرة منها.

إن حفظ صحة الأطفال يتطلب منا الأمور الآتية:

١- أكل الطيبات من غير تبذير ولا إسراف، ومراعاة الاعتدال في الشأن كله. ولا بد هنا أن نؤكد بقوة على أن أطيب الطيب هو الحلال؛ ولذا فإن على الأب أن يحرص الحرص كله على البعد عن الكسب الحرام والمشبوه إذا ما أراد أن يبارك الله له في نفسه وأهله.

٢- تعويد الطفل أن يأخذ ما يحتاج إليه من دواء من أجل مكافحة الأمراض والأوبئة التي تهاجم الجسم. وبعض الآباء والأمهات لا يقدمون القدوة الحسنة في هذا حيث يتضايقون من أخذ الأدوية لأنفسهم، ويفرون منها؛ مما يغري أبناءهم بتقليدهم.

٣- ينبغي على الأبوين أن يهيئا لأبنائهم الغذاء المتوازن – في حدود الوسع والطاقة – وهذا يقتضي من الأم على وجه الخصوص أن يكون لديها

درجة من الثقافة الصحية.

إن وظائف الغذاء في جسم الإنسان أربع: البناء، وتوليد الطاقة، ودعم المناعة، وبقاء النوع. ولكي يتم تزويد الجسم بالغذاء على أحسن وجه فإنه يجب أن يشكل (البروتين) نحواً من (١٥ – ١٨٪) من غذائنا والدهون (٣٠٪) والسكريات والنشويات (٥٢ – ٥٥٪) بالإضافة إلى بعض المعادن والفيتامينات. وإن الخلل الكبير في هذه النسب يسبب أضراراً كبيرة للجسد على المدى البعيد.

وعلى الأبوين الاهتمام بمصادر الغذاء ونوعيته، حيث إن كثيراً من الأغذية بات يخضع للهندسة الوراثية، كما أن المواد الحافظة والملونات الصناعية قد باتت تستخدم في الكثير من الأطعمة؛ ولذا فقد صار مطلوباً من الأم أن تقلل في بيتها من الأطعمة الجاهزة – ولا سيما اللحوم – وأن تحذر من الخلطات السرية التي يعلن عنها في كل مكان؛ وأن تقلل في بيتها من وجود الأشربة الغازية إلى أدنى حد ممكن. وعلى كل حال فستظل الأطعمة الطبيعية والطازجة أكثر أمناً ونفعاً لمتناولها، والحرص عليها مطلوب.

٤- من مهام الأم مراقبة البدانة لدى أبنائها، فهي سبب لأمراض كثيرة. وقد تعودنا في البيوت أن نحث أولادنا على تناول المزيد من الأطعمة، كما

تعود الناس في الماضي أن ينظروا إلى السمنة على أنها أمارة صحة وعافية، غير مدركين لمخاطرها الجسيمة على الصحة العامة لكل واحد منا. إن البدانة تسبب ارتفاع الضغط الشرياني، وتشحم الكبد والروماتيزم المزمن، بالإضافة إلى دوالي الساقين، وخثرات الأوردة، وقصور القلب الاحتقاني، وأمراض الشرايين التاجية، والإصابة بالسكر؛ وهي عدو لدود لمفاصل الرجلين، حيث إنها تسحقها سحقاً.

٥- لا يمكن أن تكتمل صحة الطفل من غير الاهتمام بالنظافة الشخصية ونظافة ثيابه وغرفته... ولذا فقد شرع لنا الاغتسال والوضوء في أوقات عدة وعند مباشرة أعمال عديدة. وينبغي أن يعوَّد الطفل تنظيف أسنانه والحرص على نظافة ثيابه وغرفته وفصله الدراسي.

٦- لا ينبغي للأم أن تهمل مواقيت نوم الأطفال، حيث إنه قد فشت في زماننا عادات سيئة، إذ يسهر الأطفال إلى ساعة متأخرة من الليل، وإذا جاء وقت الاستيقاظ إلى صلاة الفجر والذهاب إلى المدرسة بعد ذلك قاموا وهم نصف نائمين! إن النوم المبكر والاستيقاظ المبكر من الأمور التي رغَّب فيها الشرع، وهي عظيمة الفائدة للصحة النفسية والجسدية.

٤٤. التعامل مع نقطة الضعف

لكل كائن يعيش على هذا الكوكب نقطة ضعف تجاه بعض الموجودات الطبيعية، أو تجاه غيره من الكائنات الحية؛ فهناك من يعاني من نقطة ضعف تجاه الطعام، فمهما زاد وزنه فإنه لا يستطيع مقاومته. ومنهم من يخاف أو يشمئز من حيوان أو حشرة. وهناك من يعاني من فقد إحدى الحواس، أو من ضخامة الجسم أو شدة ضآلته وقماءته، أو من القلق والاكتئاب المزمنين...

أخطر ما في نقاط الضعف أنها تؤثر في انفعالات الإنسان واستجاباته وتقديره لذاته، وبالتالي فإنها تحد من طموحاته وتطلعاته. إن بالإمكان القول: إن أي ظروف تبعد الشخص عن التفاعل الطبيعي في بيئته الاجتماعية، تترك أثراً ما في تطور شخصيته ودرجة نضجه.

من المؤسف أن الناس لا يقدّرون دائماً وفي جميع الحالات مدى خطورة نقاط الضعف الشديدة على صاحبها، فيزيدون بذلك في معاناة الأشخاص غير الطبيعيين حيث يتوقعون منهم ما يتوقعون من الأشخاص الأسوياء في الأداء والتعامل؛ مما يزيد في حجم المشكلة.

إذا كان المجتمع قد يعذر في ذلك، فإن أسرة الطفل الذي يعاني من

مشكلة نفسية أو جسمية لا تعذر؛ فالله أوجده في تلك الأسرة ليختبرها وعليها أن تحاول النجاح في ذلك الاختبار. لن يستطيع الأبوان معاونة طفلهما على تعامله مع نقطة أو نقاط ضعفه من غير ثقافة جيدة تساعدهم على تفهم طبيعة المشكلة التي يعاني منها الصغير والآثار التي تتركها في العادة، إلى جانب وسائل المعاونة وأساليب المساعدة التي يمكن أن يقدماها له. وعلى سبيل المثال فقد تبتلى الأسرة بأن يكون أحد أبنائها مصاباً بضعف شديد في السمع يعوقه عن اكتساب المعلومات اللغوية، مما يؤثر بطبيعة الحال على أدائه في المدرسة.

الغالب من الناحية الاجتماعية على الأطفال الصم الانسحاب من المجتمع بسبب عاهتهم. وإذا اتصل أحدهم بغيره من العاديين فإنه لا يتصل به بفاعلية.

ويقل النضج الاجتماعي لدى الطفل الأصم بنحو ٢٠٪ عن الطفل السوي؛ كما يبدي عجزاً واضحاً عن تحمل المسؤولية. ومن الناحية الانفعالية يتسم الطفل الأصم بالاضطراب النفسي والانفعالي، ويشعر بالعوز إلى العطف والحنان لكونه لم يسمع صوت أمه بنغماته المختلفة، وأما من حيث الذكاء فإن ذكاءه قد يقل عن ذكاء الطفل العادي بنحو ٥٪ وهي نسبة لا

تذكر.

الأبوان يحتاجان في مثل هذه الحالة إلى أن يدخلا الطفل إلى معهد للصم والبكم، وأن يحاولا التواصل معه عن طريق لغة الإشارة التي يتعلمها في المعهد. وهم بحاجة إلى الوقوف على الأفكار والانطباعات المغلوطة التي كوّنها عن ذاته ودحضها وتخليصه منها، وتعزيز ثقته بنفسه وحل مشكلاته المادية، إلى جانب مساعدة الطفل على تعلم المهارات واختيار التخصص أو العمل الذي يتناسب مع وضعيته. وربما احتاج الأبوان إلى شيء من العلاج الشخصي لتلافي الآثار النفسية السلبية التي يتركها وجود طفل معوّق لديهما.

٤٥. الكليات الخمس

قاعدة السلوك الاجتماعي

من خلال قراءة واعية لأحكام الشريعة الغراء استطاع علماؤنا في القرن الثالث الهجري بلورة ما سموه بالبدهيات أو الكليات الخمس، وهي: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والعِرْض، والمال. هذه الكليات يمكن أن ننظر إليها نظرة جديدة، فنتخذ منها مرتكزات ومحاور لتنشئة أطفالنا التنشئة الاجتماعية الصحيحة، فهي تشكل بحق المنطق العام في بناء الوعي الاجتماعي، وفي بناء الإطار المرجعي للضبط الاجتماعي لأمة الإسلام.

المسلم مطالب بأن يدافع عن دينه، وأن يحافظ على تدينه والتزامه الخاص، كما أنه مطالب بأن يحافظ على تدين إخوانه المسلمين، وأن يساعدهم في ذلك، فلا يعرضهم للفتن، ويرشد الضال منهم، ويأخذ على يد العاصي والمنحرف. والمسلم مطالب كذلك بالمحافظة على نفسه وصحته وعقله، فلا يتناول من الطعام والشراب ولا يمارس من الأعمال ما يؤذيها. وهو كذلك مطالب بأن يحافظ على حياة إخوانه المسلمين من خلال الإغاثة والنجدة ومن خلال الامتناع عن فعل كل ما يلحق بهم الأذى والضرر؛ ومن هنا حرم الاتجار بالخمور والمخدرات ولحوم الميتة وكل ما يضر بالناس.

وهكذا يؤمر المسلم بالمحافظة على عرضه وأعراض المسلمين، كما يؤمر بالمحافظة على ماله وأموال المسلمين؛ إن دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم محرمة ولا يكمل إيمان مسلم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، ويبغض له ما يبغضه لنفسه، كما وردت بذلك الأخبار الصحاح. ومما يؤكد كل المعاني الجميلة التي ذكرناها أنه يُسنّ للمسلم إذا غادر منزله أن يقول: اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أُضل، أو أزل أو أُزل، أو أظلم أو أُظلم، أو أجهل أو يُجهل علي. وذلك لأن الخروج من البيت يؤدي إلى مخالطة المسلم لإخوانه؛ والاختلاط بين الناس مظنة البغي والعدوان، فيدعو المسلم بهذا الدعاء مسوّياً بين نفسه وإخوانه.

إن على الآباء أن يوضحوا لأبنائهم أن الناس متشابهون في أمور كثيرة، وأن ما يدخل على الواحد منهم السرور يدخله على إخوانه المسلمين، وأن ما يزعجه ويحزنه يزعج الآخرين ويحزنهم، وبهذا يعمقون وعي الأطفال في فهم الشريعة وفهم أنفسهم، ويتخذون من ذلك الوعي إطاراً توجيهياً لتعامل أبنائهم مع أقرانهم وزملائهم من أبناء المسلمين.

كم هو جميل أن نركز في مشاعر الطفل وفي مفاهيمه الاجتماعية الأحكام والآداب المتصلة بالكليات الخمس التي أشرنا إليها، من خلال إجراء المقارنة

المستمرة؛ فإذا اغتاب الطفل أحداً قلنا له: أتحب أن يغتابك أحد؟ وإذا أخذ شيئاً ليس له قلنا له: أتحب أن يأخذ أحد زملائك قلمك أو دفترك بغير إذنك. وإذا وقع أحد زملائه في خطأ حثثناه على أن ينصحه حتى يتجنبه؛ لأننا نحب ذلك لابننا، ونتمنى ألا يقع في أي خطأ وهكذا...

لا يمكن للأخوّة الإسلامية الحقة إلا أن تكون مجوّفة وخالية من المعاني ما لم نملأها بهذا النوع من المشاعر والعلاقات والتصرفات.

٤٦. صناعة المشاعر

إن اجتماع الناس بعضهم مع بعض يولّد بطبيعته التوترات والمعاكسات، وإن معقد الابتلاء في الحياة الاجتماعية يتمحور حول عدم توحد أمزجة الناس وحول عدم تطابق مصالحهم. والمطلوب منا أن نحاول نحن وأبناؤنا تفهم ما يثير النزاع بين الناس، ثم التعامل معهم بالحكمة المطلوبة، بل أن نتجاوز ذلك إلى إيجاد مشاعر المودة والأخوة والاحترام المتبادل.

إن الأمور التي تثير توترات وعداوات بين الناس كثيرة، أهمها:

- التنافس على فرص وموارد محدودة وشحيحة، حيث يسلك كثير من الناس عند تضاؤل الفرص طرقاً غير مشروعة في مغالبة الأقران، مما يثير الشحناء والبغضاء وتدبير المكائد.

الحساسية المفرطة نحو النقد حيث يتضايق كثير من الناس من أي نصيحة أو نقد يوجه إليهم؛ ولا سيما إذا كان أسلوب النقد خشناً.

- لدى بعض الناس طباع رديئة، مثل العناد وسرعة الغضب، مما يجعل توافقه مع الآخرين وتعامله معهم مشوباً دائماً بالتوترات.

- سوء الفهم لتصرفات الناس، وسوء التفسير للأحداث الجارية، كل ذلك يجعل الناس يسيئون لبعضهم، ويقفون مواقف خاطئة. إن في إمكان

الآباء والأمهات أن يوضحوا هذه المعاني للابن عن طريق استغلال المشاجرات والمنازعات التي تجري بينه وبين إخوته وأقرانه وزملائه وأبناء الجيران، حيث يمكن أن يشرحوا له أسباب تلك المشاجرات والمواقف الصحيحة منها.

إن واجبنا لا يقتصر على ذلك بل يتعداه إلى أن نعلّم أبناءنا وطلابنا كيف نصنع المشاعر النبيلة لدى الآخرين، وكيف نولّد لديهم أحاسيس المودة والصداقة والتعاطف. ومن المؤسف أن كثيرين من الناس جبريون في هذه المسألة، حيث إنك كثيراً ما تلاقي من يقول لك: إنه لا يتصور مجيء اليوم الذي يحب فيه فلاناً؛ كما أنك كثيراً ما تلاقي من يقول لك: إني أحب فلاناً حباً لا يتزعزع مهما أساء إلي أو قصّر في حقي. وهذا وذاك من المبالغة الناتجة من سوء الفهم لطبيعة الأحاسيس والمشاعر. الله – جل وعلا – يعلمنا أن المشاعر عبارة عن ثمرات لأعمال وأنشطة، وليست أشياء يجب أن نخضع لها. وفي هذا يقول – سبحانه – : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، إن مقابلتنا لإساءة الآخرين بالإحسان تبدّل مشاعرهم نحونا، وتحولهم من أعداء إلى أصدقاء.

وفي الحديث الصحيح: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

لنعلم أطفالنا أن الطريق السريع إلى قلوب الآخرين وعقولهم يكمن في الإحسان إليهم وبرّهم وغض الطرف عن هفواتهم، ومساعدتهم في مواجهة أزماتهم. وسيكون بإمكان الطفل أن يجرب ذلك مع زملائه في المدرسة.

٤٧. التعاون وروح الفريق

التعاون مبدأ إسلامي عظيم، وتزداد أهمية العمل به اليوم، حيث تسعى العولمة إلى تفكيك الأواصر بين الناس، كما تسعى إلى تهميش كل القوى والفعاليات الصغيرة لصالح القوى العملاقة. ولن يجد الصغار مساحات واسعة للحركة في عالم الكبار. والتجارب تثبت أن إمكانات المرء تتضاعف من خلال عمله ضمن فريق على أساس غير الأساس الحسابي المعروف الذي يقول: إن ٢ + ٢ = ٤، حيث إن المشاهد في مجالات الأعمال أن ٢ + ٢ يساوي ٦ أو ٧ أو ٨... لهذا كله وجب أن نربي أبناءنا على حب العمل مع الآخرين، وعلى التخلق بالأخلاق والتسلح بالمفاهيم التي يتطلبها ذلك. ومن المهم للأبوين أن يربيا الطفل على أن التعاون هو دائماً أفضل من التنافس؛ وعلى سبيل المثال، فإذا كان مستوى ابنك جيداً جداً ومستوى ابني جيداً في حال تنافسهما، فإنهما إذا تعاونا في المذاكرة والتحصيل فإن مستوى ابنك يصبح ممتازاً، ومستوى ابني يصبح جيد جداً، حيث يأتي التعاون بفائدة مشتركة للمتعاونين.

لست أقصد من هذا أن نترك التركيز على إيجاد روح المبادرة لدى الطفل

والاندفاع إلى عمل ما يجب عليه عمله ولو كان وحده؛ وإنما أقصد ألا نبني عقليته على أساس الشح والندرة وانعدام الفرص، فنكوّن لديه من حيث لا ندري نفسية السلب والنهب والاحتيال والحسد والمكر، بل نحاول أن نفهمه دائماً أن الوفرة موجودة، وأن الفرص كثيرة، وأن التحالف والتعاون وتنسيق الجهود هو أفضل طريق للوصول إليها.

حتى نؤهل أبناءنا للعمل ضمن فريق، وحتى نجعلهم قادرين على التعاون والتفاهم مع غيرهم، فإن علينا أن نركز في تربيتهم على المفاهيم والآداب التالية:

- حسن الإصغاء والاستماع لوجهات النظر التي يمكن أن يطرحها بعض أعضاء الفريق.

فهم طبيعة العمل الذي يتعاون فيه مع غيره وإدراك أبعاده وأهدافه.

- محاولة فهم الخلفية النفسية لزملائه في الفريق حتى يعرف كيف يعاملهم، حيث إنه قد يكون فيهم من هو شديد الحساسية نحو المزاح أو النقد، وقد يكون فيهم من يغلب عليه سوء الظن وحب تتبع العورات...

- تعوُّد الاستشارة حول كل النقاط الغامضة في العمل موضع التعاون.

- الاعتراف بالخطأ ومحاولة التعلم منه.

- عدم الإقدام على أي تصرف يجعل زملاءه في الفريق يسيئون فهمه أو يتأذون منه.

- عدم إفشاء أسرار العمل والحرص على ألا يتحدث عن أشياء ليس من اختصاصه التحدث عنها.

- المبادرة إلى تصحيح أي خطأ يقع من أي فرد من أفراد الفريق أو أي انحراف يصيب العمل وفق آداب النصيحة وشروطها.

- تحمل ما يحدث من تجاوزات وإساءات من بعض أفراد الفريق، واحتساب ذلك عند الله تعالى.

- إذا وجد أن الاستمرار غير ممكن مع ذلك الفريق فليتركه، ويغلق ملفه، ولا يتحدث عن ذلك العمل، ولا عن الأسباب التي حملته على الترك، وليحاول أن يتلمس مسؤوليته الخاصة فيما حدث، ولا يلقي باللوم على الآخرين وحدهم.

٤٨. احترام الخصوصيات

علمنا الإسلام كيف نكون دقيقين في الفصل بين فضائنا الذاتي، والفضاء الذي يعيش فيه الآخرون؛ وذلك لأن كل كائن حي – ولا سيما البشر – يحدد لنفسه مجالاً حيوياً ينظر إليه على أنه منطقة عيش آمنة بالنسبة إليه، وينظر إلى من يضايقه فيه على أنه معتدٍ تجب مقاومته. مهما كانت علاقتنا حميمة ومهما كانت الخلطة بيننا كبيرة فإننا نرغب في أن نظل في بعض الحالات في مأمن من نظرات الآخرين، كما نرغب في أن يكون لدينا أخبار ومعلومات وأشياء خاصة بنا، لا يعرف أحد عنها شيئاً.

وإن القرآن الكريم قد أعطانا بعض المؤشرات وبعض التنظيمات في هذا الشأن لنتخذ منها أساساً في تعاملنا مع خصوصيات بعضنا؛ يقول الله جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: ٥٨].

فقد وجهنا القرآن الكريم إلى أن نعلّم أطفالنا ومن يكون في خدمتنا في البيوت ضرورة أن يستأذنوا قبل الدخول علينا في أوقات تعد أوقات راحة، وأوقاتاً

خاصة لا يكون المرء فيها مستعداً لاستقبال أحد. ولذا فإن على الأبوين ولا سيما الأم أن يعلّما الطفل جوهر خصوصيات الآخرين وحدودها، إلى جانب حثه على احترامها، فلا يدخل على أحد في مكان خاص دون استئذان، ولا يفتح شيئاً مغلقاً ليس له، سواء أكان باب بيت، أو ثلاجة، أو كتاباً، أو دفتراً، أو صندوقاً، مهما طالت إقامته في ذلك المكان.

ومن أهم ما يوصى الصغير بحفظه ما يؤتمن عليه من أسرار، وما يدور في المجالس الخاصة من أحاديث، لا يرغب أصحابها في تناقلها، وقد تأدب بهذا الأدب صفوة الصحابة – رضوان الله عليهم – حتى الصبيان كانوا يدركون هذا المعنى؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: رآني رسول الله ﷺ ألعب مع الصبيان، فبعثني في حاجة له، فذهبت فيها، وجلس رسول الله ﷺ ينتظرني في فيء حتى آتيه. واحتبست عن أمي (أي: تأخر عنها) فلما أتيتها قالت: ما حبسك؟ قلت: بعثني رسول الله ﷺ في حاجة له. قالت: ما هي؟ قلت: هو سر لرسول الله ﷺ. قالت: فاحفظ على رسول الله سره. قال ثابت راوي الخبر: قال لي أنس: لو كنت محدثاً أحداً به لحدثتك به يا ثابت. انظر إلى موقف أنس، وانظر إلى موقف أمه، وقارنه بمواقف بعض الأمهات؛ حيث إن كثيرات منهن يلححن على أطفالهن كي يخبروهن بكل شيء يرونه أو يسمعونه مهما كان الحديث فيه مؤذياً للآخرين!

ويعوّد الطفل كذلك عدم رفع الصوت أثناء كلامه، فالصياح مؤذ للسمع معكّر لصفاء المجالس. كما يُعلّم أن يضع يده على فمه أثناء الضحك والعطاس والتثاؤب حتى لا يؤذي عيون الجالسين بما لا يرغبون في رؤيته. كما يُعلَّم الصبي ألا يمد رجليه في مجلس فيه من هو أسن منه. وينبه على الطفل كذلك أن يترك مسافة بينه وبين المارة في الطرقات المزدحمة، ولا يطيل النظر في وجوههم. وينبغي أن يُعلَّم الطفل كذلك ألا يسأل أحداً عن المكان الذاهب إليه؛ وإذا اقترض أحدٌ منه مالاً، أو استعار منه شيئاً فلا يخبر أحداً بذلك. ولو تأملت في أي أدب من هذه الآداب لوجدت أن في الإخلال به نوعاً من العدوان على خصوصية الآخرين.

هذه الآداب كلها تهيئ الطفل للدخول على عالم الكبار والاتصاف بصفاتهم.

٤٩. طرف من الآداب الاجتماعية

الإسلام يحث المسلمين دائماً على الاجتماع ونبذ الفرقة، وعدم الاستغراق في الشأن الخاص بعيداً عن العناية بالشأن العام. وحتى يرغب الناس في الاجتماع، فإنه ينبغي أن يكون مريحاً مبهجاً جميلاً خالياً من المنفرات والمزعجات؛ ولهذا فإن الصغار والكبار مطالبون بالالتزام بسلوكات اجتماعية معينة، وهي في الحقيقة كثيرة، وقد ألمحنا إلى طرف منها في العنوان السابق، ونشير هنا إلى طائفة أخرى عبر الحروف الصغيرة التالية:

- يعلَّم الصبي كيفية تناول الحديث، فلا يقاطع المتحدث حتى يفرغ من كلامه. وحين يكون في مجلس فيه بعض الكبار لا يشرع في الحديث حتى يستأذن. وإذا تكلم تكلم باختصار، وفي نفس الموضوع الذي يتحدث فيه أهل المجلس.

- على الأبوين أن يطبّعا أولادهما على البشاشة وطلاقة الوجه والاستبشار، فهذا مما يعبر عن الرضا والسكينة والصفاء، ومما يدخل السرور والارتياح على نفوس من نلقاهم؛ ولهذا لم يكن غريباً أن يُجعل التبسم نوعاً من القربة إلى الله تعالى وقد قال ﷺ: «تبسمك في وجه أخيك صدقة».

- إذا التقى الصبي أو الناشئ مع الكبار عند الدخول إلى مكان أو الخروج منه، أو عند تغسيل اليدين - مثلاً - فإنه يعلم أن يتنحى للكبار في السنّ ويقدمهم على نفسه. وإذا احتاج أحدهم إلى مساعدة سارع إلى تقديمها عن طيب نفس.

- مع أن النظافة مطلب شرعي وحضاري، إلا أن لممارستها مواضع محددة، ولا يستحسن للمرء أن يقوم بتنظيف نفسه أمام الآخرين، ولذا فعلينا أن نعلّم الصغير ألا يزيل ما تراكم في أذنه أو أنفه أمام الناس؛ وكذلك لا يقلم أظافره في محضر منهم.

- قد لا يستطيع المرء أن يقدم لإخوانه وأصدقائه سوى أشياء صغيرة، لكنه يستطيع أن يقدمها مصحوبة بالعاطفة والحب والعبارات الحلوة واللطيفة. وكم هو جميل أن نعوّد أنفسنا وأطفالنا إذا قدمنا الهدية أو الخدمة أن نقدمها مشفوعة بالاعتذار المخلص والصادق عن التقصير ومصحوبة برجاء قبولها؛ إن هذا كثيراً ما يكون أهم من الهدية نفسها.

- يعوّد الصغار استقبال الضيوف وتوديعهم عند الباب الخارجي، كما يعودون الانتباه لحاجات الضيف قبل أن يطلبها، فيأتي الصغير للضيف بكأس الماء دون أن يطلبه. وإذا عطس الضيف أحضر له منديلاً..

- يعلم الصغير إذا تحدث في الهاتف ألا يضع سماعة الهاتف قبل أن يضعها من يحدثه. كما يعلم الأطفال عدم الإسراع والتسابق إلى الرد على الهاتف، وإذا رد أحدهم على مكالمة رد بأدب وعرف اسم المتصل والوقت المناسب للاتصال به..

- للجار في الإسلام حق عظيم لا يخفى على القارئ الكريم، وعلينا أن نعرّف أطفالنا على ذلك؛ وأدنى أداء لذلك الحق أن نكفّ الأذى عنه فلا يؤذيه أطفالنا بأصواتهم أو بألعابهم وجريهم. وإن من إكرام الجار إكرام أبنائه والإحسان إليهم والسماح لهم باللعب ببعض ألعاب أبنائنا، وعلينا أن ندرب أبناءنا على كل ذلك.

- إذا أخطأ الصبي مع أحد، فلا ينبغي له أن يسوّغ خطأه، ويحاول الدفاع عن نفسه بالحق والباطل، وإنما نعلمه أن يذهب إلى من أخطأ معه، ويعتذر إليه، ويطلب المسامحة منه...

إن تصرفات الطفل تعكس مدى اهتمام أبويه به ومدى حرصهم عليه. فلنقرأ جهودنا ونجاحاتنا التربوية في معاملة أبنائنا للآخرين.

٥٠. التربية بالقدوة

في إمكان الآباء والأمهات في البيوت أن يوجهوا الكثير من النصائح، وأن يلفتوا النظر إلى كثير من الأمور، لكن المحك النهائي في الاستجابة إلى ذلك يعتمد على ما تنطق به شخصياتهم وأوضاعهم العامة؛ فالأطفال أذكى مما نظن، وهم يلاحظون أشياء كثيرة نظنهم عنها غافلين.

ولهذا فإن من أكبر المشكلات التي واجهتها الجهود التربوية في كل زمان ومكان تلك المساحات الفاصلة بين أقوال المربين وأفعالهم. وربما لهذا السبب كان تأثير الأستاذ في الطالب أعظم من تأثير أبيه فيه؛ لأنه يرى أباه في كل أحواله، ولا يرى أستاذه إلا في أفضل أحواله، فهو لا يرى تقريباً إلا الاتزان والكمال.

الله – جل وعلا – يبغض الصور التي تبرز فيها المفارقات بين الأقوال والأفعال؛ قال الله – سبحانه – : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ – ٣].

وقال – سبحانه – : ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

دعونا نعترف بأن مشكلتنا في تربية أبنائنا لا تتجلى دائماً في مخالفة القول العمل، بل تتجاوز ذلك إلى بعض الجوانب المعرفية، فنحن في الغالب نمارس عين الأسلوب الذي مارسه معنا آباؤنا وأمهاتنا، فإذا عاملونا بقسوة جنحنا إلى استخدامها في تربية أبنائنا، وإذا أهملوا بعض الجوانب في شخصياتنا، فلم يهتموا بها أهملناها بدورنا عند تربيتنا لأبنائنا وهكذا... نحن بحاجة إلى أن نكسر هذه السلسلة الرديئة، ونتجاوز كثيراً من الأساليب التربوية التي مورست معنا، لا لأن تلك الأساليب كانت خاطئة فحسب، ولكن لأن الزمان قد تغير، فجدَّت متطلبات، وبرزت تحديات لم تكن موجودة في السابق، وتقدمت علوم التربية بما رفدها من بحوث وخبرات متنوعة. ومن الذي يستطيع أن يدعي أنه معجب بكل أولئك الذين قاموا على تربيته من آباء ومعلمين وموجهين؟ ومن هو الذي يستطيع القول: إنه تلقى في صغره كل ما ينبغي أن يتلقاه، وبالأساليب الصحيحة؟

الخلاصة من كل ما سبق أننا نحن الكبار بحاجة إلى أن نطالع في المرآة لندقق النظر في أوضاعنا، ولنكتشف وجوه القصور في حياتنا، وإذا فعلنا ذلك فإن كل واحد سيجد أنه بحاجة إلى أن يعيد تأهيل نفسه في أكثر من جانب من جوانب شخصيته، وأن يغير العديد من أوضاعه وأحواله في سبيل القيام

بالدور التربوي المطلوب منه على الوجه الصحيح.

الأب الذي يدخن، إذا أراد حقاً لأبنائه ألا يكونوا مدخنين مطالب بأن يقلع عن التدخين حتى يتعلم منه أبناؤه عملياً كيف تتجلى قوة الإرادة والقدرة على التغيير. والأب الذي يتقاعس عن صلاة الجماعة مطالب بأن يحرص عليها إذا ما كان يريد حقاً من أبنائه أن يكونوا من رواد المساجد.

والأم التي تريد من ابنتها أن تكون حريصة على ارتداء الحجاب الشرعي مطالبة بأن تحرص هي أولاً على الحجاب وهكذا...

أرى بعد هذا وذاك أن نقوم بالآتي:

- نفهم الصغار أن أوضاعنا ليست على ما يرام، وأن كل من في البيت يحتاج إلى أن يغير بعض الأشياء في سلوكه.

- أن ننقد أنفسنا ونعترف بأخطائنا، ونتحدث أمامهم عن ضرورة التوبة.

- نعلن دائماً أن بني البشر خطاؤون، وأن خير الخطائين التوابون، وأن نبينا محمداً ﷺ هو القدوة الكاملة لما أكرمه الله به من العصمة.

٥١. مفاتحة من غير إستقصاء

وقوع الأخطاء، ووقوع أشياء غير حميدة من الطفل أمر طبيعي، حيث إن معايير الخطأ والصواب الضار والنافع، وما يليق وما لا يليق... غير مكتملة لديه. ولا يشكل ذلك أي خطورة إذا كانت علاقة أبويه به تمضي في المسار الصحيح. نحن بحاجة إلى أن نمد جسور الثقة بيننا وبين أبنائنا، نطلعهم على ما في نفوسنا، ويطلعوننا على ما في نفوسهم. وسوف نستفيد من ذلك في اتجاهين:

الأول: هو التأثير فيهم؛ إذ إن من المعروف أن الإنسان سواء أكان صغيراً أو كبيراً يتأثر بمن يحبه ويعجب به، ويختلط معه. ويزداد هذا التأثر كلما قويت الصلة وازدادت الثقة.

الثاني: تصحيح أخطاء الطفل وتقويم اعوجاجه. ومن الواضح أن الطفل لن يفضي لأبيه، والبنت لن تفضي لأمها بما ينبغي أن يطلعا عليه إلا إذا توفرت الشروط الآتية:

- محبة وصداقة حقيقية بين الآباء والأمهات وبين الأولاد.
- اعتقاد الطفل أنه لن يتعرض لعقوبة شديدة من وراء اطلاع أبويه أو أحدهما على خطئه.
- اعتقاده أنه سيتم فهم دوافع خطئه والظروف التي أحاطت به.

- ثقته في وقوف أهله إلى جانبه في تلافي آثار ذلك الخطأ.

الحالة المثالية تكمن في أن نعوِّد الطفل إطلاعنا على أحواله وشؤونه من تلقاء نفسه، وبمبادرة منه. وليس هناك ما يمنع من أن نسأله في بعض الأحيان عن ما يعكر صفوه، أو ما يزعجه، أو عن بعض أصدقائه، أو بعض ما يفكر فيه... فذاك يشعره بأننا مهتمون به، ومنزعجون لما يزعجه.

ولكن علينا أن نحذر من الاستقصاء ومحاولة التحقق من كل صغيرة وكبيرة في حياته؛ إذ ليس هناك أي مصلحة في أن ينكشف الطفل أمامنا على نحو تام، فذاك مما يجرح كبرياءه، ويربك وعيه، ويلجئه إلى الكذب والجدال بالباطل. وكما أن علينا ألا نسأل عن كل التفاصيل فإن علينا أيضاً ألا نفضي إليه بكل ما نلاحظه على سلوكه. وإذا كان لا بد من ذلك فلنجعل ذلك متفرقاً وفي ظروفه المناسبة. وهذا السلوك الرفيع تعلمناه من نبينا ﷺ حيث إن حفصة حين أفشت ما أسرّه إليها النبي ﷺ إلى عائشة، وأطلعه الله عليه لم يناقشها في جميع ما أفشته وإنما فعل كما قال - سبحانه - : ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ [التحريم: ٣]. قال الحسن: «ما استقصى كريم قط». وقال سفيان الثوري: «ما زال التغافل من شيم الكرام».

٥٢. شرح الأوامر والنواهي

الأصل ألا يصدر المربي الكثير من الأوامر والنواهي، فالتربية التي نقدمها عمل تطوعي خدمي غير مشروط؛ وهذا هو سر شعور الأطفال نحو أهليهم بالحب والامتنان. ومن وجه آخر فإن روح التفاهم والتناغم التي تسود المنزل تجعل الحاجة إلى تدخل الأهل محدودة؛ فالأطفال يعرفون ما ينبغي عليهم عمله، وما ينبغي عليهم تركه. لكن إذا أمرنا الطفل بأن يقوم بعمل بعض الأشياء، أو ترك بعض التصرفات، فلنحاول دائماً أن نتأكد أن امتثاله لما نقوله له نابع من قناعة وتفهم. وتلك القناعة قد تنبع من اعتقاد الأطفال بحكمة الكبار وصواب رؤيتهم، وقد تأتي من خلال شرح الكبار لهم.

لو نظرنا في اللغة التي نستخدمها مع أبنائنا لوجدنا أنها في الغالب عبارة عن أوامر ونواهٍ مجردة: مشّط شعرك، نظّف أسنانك، اخلع حذاءك، اذهب إلى النوم... ولا ريب أن بعض هذه الأوامر لا يحتاج إلى تعليل وشرح، لكن في أحيان كثيرة لا يكون الأمر كذلك. الهدف من الشرح والتعليل هو الحصول على أمرين:

الأول: أن نبني العقلية السببية لدى الطفل حيث نعوده منذ الصغر أن

يربط بين الظواهر وأسبابها، والنتائج ومقدماتها. وذلك يقوي لديه الرؤية المنطقية والمنهجية، ويساعده على النجاح في الحياة، كما يجعل عقله في مأمن من تسرب الخرافة إليه، فحين نقول للطفل: لا تخرج إلى اللعب اليوم؛ لأن الجو بارد. وحين نقول له: نظف أسنانك كي تبقى قوية وسليمة؛ فإننا بذلك نساعده على أن يفهم مفردات الوجود في إطار من الترابط والتعالق، وهذا هو واقع الحياة في الحقيقة.

الثاني: الحفاظ على كرامة الطفل؛ إذ إن الشرح ينطوي على اعتراف بأهمية الطفل. ونحن لا نريد أن نربي (إمعة) يتصرف كالتابع الذليل. وإنما نريد أن نربي رجلاً مستقل الشخصية، متميز الكيان، يعمل ما يقتنع به، ونحن حين نشرح للطفل مواقفنا وأسباب رفضنا لأمر يرغب القيام به فإننا نمنحه فرصة للدفاع عن رأيه والمجادلة عن وجهة نظره. وقد تكون صحيحة ومقنعة.

نعرف أطفالاً كثيرين يسلكون سلوك المنافقين بسبب صرامة لغة أهليهم معهم، فهم يمتثلون لما يؤمرون به على وجه تام، لكنهم في داخلهم يرفضون على نحو تام كل ذلك؛ ولذا فإنه حين تتاح لهم الفرصة للقيام بما يحبون، فإنهم يندفعون إليه على نحو طائش غير عابئين بموقف أهليهم من ذلك.

إذا قلنا للابن: لا تخرج ليلة الامتحان إلى خارج المنزل حتى تتفرغ

للدراسة، وحاولنا إقناعه بذلك، فلم يقتنع، فإننا لا نتركه يتصرف على ما يهوى؛ لأن في ذلك فساد مصلحته. إننا نمنعه من الخروج، ونشرح له في وقت مناسب خطأ ما كان سيقدم عليه.

لا شك أن عملية الشرح والتفسير لا تخلو من بعض المشاق؛ ولا سيما إذا كان الطفل عنيداً، لكن من الذي يقول: إن في التربية شيئاً سهلاً.

إن التربية عبارة عن جهود متتابعة، ولا ندري على وجه التحديد متى تثمر الثمرة المرجوة؛ ولا بد من الصبر؛ وعلى الله المثوبة والأجر.

٥٣. تنويع الأساليب التربوية

الطفل الذي نربيه كائن حي يتمتع بالعنصر الروحي والإرادة الحرة، وهو كائن سريع التغير عظيم التأثر، ومن الصعب أن نحدد دائماً على وجه دقيق مصادر تغيره وتأثره، كما لا يمكن أن نحدد الأوضاع التي سوف يصير إليها. ومهما قلنا عن تشابه الناس ووحدة الفطرة البشرية فإن كل طفل – على مستوى التفاصيل – يكاد يكون عبارة عن مخطوطة فريدة يحتاج التعامل معها إلى فقه خاص. وأعتقد أن أكبر مشكلة يواجهها المربون هي العثور على نقطة توازن في التعامل مع من يقومون على تربيته، توازن بين اللين والشدة، وبين المتابعة وغض الطرف، وبين الثواب والعقاب... وتعبر إحدى الأمهات الفاضلات عن بعض ما تلاقيه الأم في التربية من خلال تجربتها الشخصية قائلة: إني حاولت تطبيق المبادئ التربوية التي قرأتها في بعض الكتب، حيث بدأت أشجع ولدي وأذكر أن لديه قدرات ومهارات جيدة. وبعد مدة بدأ الفتى يتحدث عن نفسه، ويشيد بإمكاناته... كما بدأ يعيِّر أخاه الأكبر منه بسنتين بأنه غبي، ولا يمكن أن يكون له مستقبل. وإلى جانب هذا كنت أمدحه بأنه سريع في تلبية ما يطلب منه. وبعد مدة صار يتلكأ إذا طلبت منه شيئاً، ويقول: ليفعل ذلك غيري، فأنا عملت ما فيه الكفاية. تقول المربية الفاضلة: وهكذا كان علي أن أراجع حساباتي، وأسير في الطريق المعاكس، فكففت عن الثناء على ذكائه ونشاطه، وجعلت أركز على التواضع وإنكار الذات، والتقليل من شأن الذكاء في النجاح، والتركيز على الاستمرار في بذل

الجهد والعمل الشاق. وفي الوقت نفسه قللت من طلب الخدمات منه لأشعره بأن حياة البيت يمكن أن تستمر من غير خدماته.

هذه التجربة يمر بها كثير من المربين، ولكن الذين ينتبهون إليها قليلون، والذين يفعلون ما ينبغي أن يفعلوه من تغيير لأساليبهم التربوية أقل.

إذا كانت حكاية المربية الفاضلة تترك انطباعات سلبية، فإن هناك تغييرات إيجابية كثيرة تحدث تحولاً في شخصية الطفل، وإن علينا أن نستجيب لتلك التغييرات، ونغير في موقفنا من الطفل وفي كيفية تعاملنا معه، فبعض الأطفال قد يكون مقصراً في دروسه – مثلاً – فيشدد أبواه في متابعة كيفية قضائه لوقته وأدائه لواجباته... ولكن يحدث أن يتقدم الطفل في دراسته، ويتحسن وضعه – ولو تحسناً صغيراً – ويكون الأبوان غافلين عن ذلك، فيستمران في طريقتهما تلك، ويبدأ الطفل بالتضايق حيث يشعر أن تشديد أبويه مبالغ فيه، كما يشعر بنوع من خيبة الأمل، حيث إنه كان يتوقع الشكر والتشجيع والمكافأة على اجتهاده وتحسن دراسته.

لهذا كله نحن بحاجة إلى مراجعة دورية لأساليبنا التربوية، وتحسس النتائج التي نحصل عليها من وراء استخدامها. وفي ضوء تلك المراجعة يتم رسم ملامح سلوكنا التربوي الجديد.

٥٤. العدل بين الأبناء

العدل بين الأبناء واجب شرعي. وهو أحد متطلبات النجاح في التربية. وقد روى النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - أن أباه أتى رسول الله ﷺ فقال: إني نحلت (أي أعطيت) ابني هذا غلاماً كان لي. فقال رسول الله: «أكلّ ولدك نحلته مثله»؟ فقال: لا. فقال الرسول: «لا تشهدني على جَوْر» وفي رواية أنه قال: «اتقوا الله واعدلوا في أولادكم».

كثيرون منا قد يشعرون بنوع من الضيق والحرج لأن مشاعرهم نحو أبنائهم ليست على درجة واحدة من الحرارة والتعاطف. وهذا يدل على النبل والفضل، لكن الحقيقة أن الناس لا يستطيعون غالباً التحكم في مشاعرهم. وقد يكون الطفل نفسه هو السبب في ضعف حب أبويه له، حيث قد يكون كسولاً في المدرسة، وأهله يتطلعون إلى تفوقه. وقد يكون كثير البكاء بسبب مغص معوي ينتابه باستمرار، فيشعر الأب أن ابنه يحرمه من نوم هو بأمس الحاجة إليه. وفي بعض الأحيان تكون للأبوين تطلعات غير عقلانية، ولا يستطيعان إلا أن يشعرا بخيبة الأمل إذا لم يحقق الصغير تلك التطلعات؛ كما لو كان الأب رياضياً، وينتظر ولداً قوي البنية، فيرزق بولد ضعيف البنية

عازف عن الرياضة. وكما لو أن الأم كانت تنتظر بنتاً وسيمة، فرزقت ببنت قبيحة وهكذا...

وعلى كل حال فإنه لا يصح إظهار تلك المشاعر وإعلانها، كما لا يصح أن تنعكس على سلوك الأهل وتعاملهم مع أبنائهم.

بالنسبة إلى الأمور المادية، فالأصل أن تكون التسوية فيها بين أبناء الأسرة الواحدة مطلقة، لكن تتشكل ظروف وأوضاع تقتضي أن يعطى أحد الأبناء أكثر من إخوته، وذلك كأن يكون أحدهم يدرس في الجامعة، وإخوته يعملون في بعض الأعمال، ويكسبون رزقهم. أو يكون أحد الأبناء قد اختار تخصصاً في الدراسة تكاليفه أعلى من تكاليف التخصصات التي اختارها إخوته. أو يكون في وضع صحي خاص يتطلب إنفاقاً خاصاً وهكذا...

وينبغي أن يتم كل ذلك عند الحاجة في حدود الاعتدال والتراضي وفي دائرة العرف.

ليس من العدل أن نطلب من جميع أبنائنا أداء واحداً في دراستهم وأشغالهم، فقد يكون لدى بعضهم إمكانات أدنى من إمكانات بعضهم الآخر، أو لهم ظروف مختلفة. ولذا فإن على الأبوين الابتعاد عن إجراء المقارنات بين الأبناء، وبينهم وبين الآخرين، كأن تقول الأم لابنها: انظر إلى

فلان كيف يكون الأول على مجموعته وأنت ترسب. انظر كيف يكسب فلان كذا وكذا وأنت لا تكسب شيئاً... إن هذه المقارنات كثيراً ما تكون غير عادلة. وهي تشوه نظرة الولد إلى نفسه، وتحطم ثقته بها، وقلما نحصل منها على شيء إيجابي.

على الأم أن تعرف كيف توزع اهتماماتها بين أطفالها، فقد تهتم بالمولود الجديد، ويشعر المولود الأكبر أنه خسر أمه بسبب أخيه الصغير، فيحقد عليه، وقد يؤذيه. وقد تتنبه لديه أحاسيس الشعور بالظلم، ويعاني منها طويلاً.

ومن المعروف أن الطفل الأكبر يستأثر بالكثير من عناية أهله، كما أن آخر الأطفال يعد عادة ابن الأسرة المدلل. أما الطفل المتوسط فإن الاهتمام به يكون أقل. ولا بد للأم والأسرة كلها أن تلحظ مثل هذا المعنى.

وطالما اشتعلت نار العداوة بين الإخوة بسبب تصرف الأهل. وفي قصة يوسف عليه السلام مع إخوته عظة وعبرة.

٥٥. ما بين الثواب والعقاب

مسألة استخدام العقاب في التربية في البيوت والمدارس من الأمور التي أثارت الكثير من الجدل في أوساط التربويين والمربين. ولا نريد أن ندير نقاشاً حول الحاجة إلى العقاب في التربية، ولكن أريد أن أوضح بعض الأسس التي تتعلق بهذا الموضوع عبر النقاط التالية:

- إن علينا أن نعتقد أن المصدر الأساسي للتأديب الصحيح، هو أن ينشأ الطفل في أسرة محبة ودودة، فيكون محبوباً وشفافاً، ويتعلم كيف يحب الآخرين. ومن تلك الأسرة، وفي ذلك الجو البهيج يتعلم معايير الصواب والخطأ، وما يليق وما لا يليق.

- إن الأكثرية الساحقة من الآباء والأمهات يشعرون أنهم لا يستطيعون تدبير أمورهم مع أطفالهم من غير اللجوء إلى العقوبة بين وقت وآخر. والحقيقة أن قدراً كبيراً من ذلك يتوقف على الطريقة التي نشأ عليها الأبوان؛ فإذا كانا قد تعرضا من وقت إلى آخر لعقوبة أهليهم لأسباب وجيهة، فمن الطبيعي أن يستخدما العقوبة في حالات مماثلة. أما إذا كانا قد عوملا وهما صغيران بالإرشاد الإيجابي وحده، فأغلب الظن بأنهما سيشعران أن في إمكانهما أن يفعلا الشيء نفسه مع أبنائهما.

- لنجعل تربيتنا تعتمد على المكافأة والثواب والتشجيع، فهذه الأمور تدفع الطفل دفعاً في طريق الصواب والخير، وتحافظ على قابلية جيدة له في اتجاه النمو والتحسن. ومن الواضح أن السلوك الجيد يتكون من مجموعة من العادات الجيدة. كما أن السلوك السيئ يتكون من مجموعة من العادات السيئة. وليس هناك طريقة للصد عن الأعمال السيئة أفضل من تشجيع الصغير على تعود القيام بالأعمال الحسنة والجميلة.

ولهذا فإن علينا أن نحاول أن نتعرف على الأشياء التي يحبها الطفل، كي نقدمها له كلما قام ببعض الأعمال الجيدة.

- إذا كان لا بد من العقاب فلنتدرج فيه، ويمكن أن نبدأ بنظرة أو همهمة. ويمكن أن نبدأ بمدح غيره من أقرانه أمامه بشرط أن يكون ذلك في وقت العقاب وليس في كل وقت. ويمكن لنا أن نعاقبه بصرف الاهتمام عنه ومعاملته بشيء من الإهمال حتى يشعر بخطئه. وقد يكون العقاب بحرمانه من مصروفه اليومي، أو من نزهة عودناه الخروج إليها. وقد يكون بتهديده. ومن المفضل أن تستخدم التهديد الأم، فتقول له: إن عدت إلى العمل الفلاني فسوف أخبر أباك. إن خير اختبار لجدوى عقوبةٍ ما هو أن نرقب ما يمكن أن يترتب عليها من نتائج؛ فإذا أدت إلى تغيير سلوك الطفل نحو ما نريد دون أن

تترك فيه آثاراً نفسية أو بدنية، فمعنى ذلك أنها عقوبة ناجحة. أما إذا جعلت من الطفل إنساناً غاضباً متحدياً، أو جعلت سلوكه أسوأ مما كان عليه، فمن المؤكد أن تلك العقوبة مخفقة.

أما استخدام الضرب في العقوبة فينبغي ألا نلجأ إليه إلا بعد استنفاد كل الوسائل الأخرى، فهو أشبه بالتدخل الجراحي من الطبيب. فإذا اضطررنا إليه فلنتقيد بآدابه التي ذكرها علماء التربية الإسلامية، والتي منها: أن الطفل لا يضرب قبل سن العاشرة، كما لا يجوز ضربه على الرأس أو الوجه. كما لا ينبغي إيقاع الضرب والمربي في قمة غضبه. نعم يمكن أن يهدده وقت اكتشاف الخطأ، ثم ينفذ ذلك بعد أن يهدأ غضبه. ومنها ألا يُضرب أمام أحد، وألا يكون الضرب مبرحاً، فيترك آثاراً نفسية أو جسمية. ولا يطلب من الطفل الاعتذار أثناء الضرب أو بعده.

تعالوا بنا كي نحاول الحصول على تربية جيدة دون ضرب فطريق النجاح في هذا الأمر معبّد ومفتوح.

٥٦. نفهم جذور مشكلات الأبناء

السلوك الإنساني لغز كبير، وتفسيره على وجه صحيح ليس من الأمور السهلة دائماً. ومعرفة الدوافع والخلفيات لموقف أو أسلوب ما، من الأمور الشاقة في أكثر الأحيان، ولكن حين نستطيع التوصل إلى معرفة حقيقية لجذور المشكلات التي يعيشها بعض أبنائنا فإننا سنوفر على أنفسنا وعليهم الكثير من الجهد والكثير من المتاعب أيضاً.

تخيل شخصاً يقف على ضفة أحد الأنهار، فإذا برجل يصرخ طالباً النجدة، وهو يقاوم الغرق، فقفز الشخص إلى الماء وأنقذه. ولا يكاد يخرج من الماء ويلتقط أنفاسه حتى يسمع صوت صرخة ثانية. وبدون تردد يقفز في الماء لإنقاذ شخصين آخرين. وقبل أن تتاح له الفرصة لجمع شتات نفسه يسمع صراخ أربعة أشخاص آخرين طالبين النجدة. ويمضي الرجل سحابة يومه منقذاً شخصاً وراء شخص من الغرق في تلك الأيام الثائرة. ولو أنه سار بضع خطوات في اتجاه مصب النهر لرأى من يلقي كل هؤلاء الناس في الماء. ولو فعل ذلك لوفر على نفسه جهداً كبيراً، وقد يمكنه ذلك من معالجة جذور المشكلة.

ولعلي هنا أذكر بعض الأسئلة الجذرية لوقوع الطفل في الأخطاء عامة.

وأذكر بعد ذلك بعض الأسباب الخاصة التي يمكن أن تؤدي إلى مشكلة بعينها.

أما الأسباب العميقة لوقوع الطفل في الأخطاء عامة فإنها عديدة، نذكر منها الآتي:

- نقص خبرات الطفل بآداب المجتمع وعدم تشربه على نحو كاف لأعرافه يجعل جهاز الضبط لديه لا يقوى على التحكم في رغباته ونزواته، فيندفع إلى عمل ما يظنه ممتعاً ومفيداً له.

- شعور الطفل بالسأم والضجر نتيجة الفراغ، أو انصراف اهتمام الأهل عنه، يدفعه إلى أن يتصرف تصرفات غير لائقة، أو يكسر بعض الأشياء، أو يضرب أبناء الضيوف... وكل ذلك من أجل طرد الملل، ولفت الأنظار إليه.

- الضغط الشديد من قبل الأم أو الأب، يجعل أخلاق الطفل تسوء، وقد يدفعه إلى المعاكسة والمشاكسة.

- رغبة الطفل في أن ينجز أعماله من غير حاجة إلى الآخرين توقعه في بعض الأخطاء.

- حب التساؤل والاستطلاع الذي فطره الله عليه يجعله يخرب بعض الأشياء حتى يتعرف على كنهها.

ولنوضح الآن الأسباب التي قد تؤدي إلى وقوع الناشئ في مشكلة محددة، ولتكن الرسوب المتكرر في مادة الرياضيات. وهي أيضاً أسباب متنوعة نقتصر على ذكر أهمها:

- وجود نوع من الضعف لدى الطفل في ملكة التعامل مع الأرقام.
- المدرس لا يشرح الدروس بطريقة جيدة وكافية.
- أهل الطفل لا يتابعونه في البيت، فلا يكتب واجباته.
- كره الطالب للمادة لعدم انسجامه مع مدرسها في إحدى السنوات السابقة.
- والد الطفل يلزمه بالعمل معه في متجره أو مزرعته، مما يضيّع عليه أوقاتاً يحتاجها للمذاكرة.
- وجود اعتقاد راسخ لدى الطفل بأنه لن يكون في المستقبل مدرس رياضيات.

وقد يجتمع أكثر من سبب للظاهرة الواحدة. وسيكون من المهم آنذاك أن يعرف الأهل في البيت الأسباب الجوهرية للمشكلة.

٥٧. إختلاف المربين يفسد التربية

إن نقص الخبرات لدى الطفل يجعله يتطلع بشوق إلى كل ما يقوله أبواه، ويحاول فهمه وتفسيره. ولذا كان من الضروري أن يبلور الأبوان لغة مشتركة يستخدمانها في توجيه أبنائهما وتربيتهم. وإذا نظرنا في أحوال معظم البيوت وجدنا فيها أشكالاً من الخلاف والنزاع الهادئ بين الأبوين. وفي نسبة لا بأس فيها منها خلافات حادة ومنازعات شبه مستمرة. وإذا دققنا النظر في أسباب تلك الخلافات وجدنا أنها تعود على نحو جوهري إلى عدم فهم طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة، حيث يريد الزوج من زوجته أن تفكر بنفس الطريقة التي يفكر بها، وأن ترغب في نفس الأشياء التي يرغب فيها، وتشعر بنفس المشاعر التي يشعر بها. وتريد المرأة من زوجها مثل ذلك. وهذه الرغبة في غير محلها، حيث إن العلاقة بين الرجال والنساء لا تقوم على التشابه وإنما على التخالف، على مبدأ (نختلف لنأتلف) فالتركيب العضوي والنفسي وسلسلة المعقولات وسُلَّم القيم، كل ذلك مختلف عند الرجل عنه عند المرأة، وعدم الوعي بذلك هو الذي يؤدي إلى تأجيج الخلاف بين الزوجين.

إن تلافي كثير من الخلاف بين الزوجين ممكن من خلال فهم كل واحد

منهما لطبيعة الآخر وحاجاته وظروفه وتطلعاته وإمكاناته ومشكلاته، وما لا يمكن تلافيه تمكن إدارته فتقل مخاطره. وحبذا لو استطاع الأبوان إبقاء خلافاتهما بعيدة عن اطلاع أبنائهما؛ ثم بعد ذلك يتفقان على السياسة التربوية التي سيتبعانها في التعامل مع الأبناء، ومهمات كل واحد منهما.

وقد يكون من المفيد أن تباشر الأم رعاية الأطفال الأصغر سناً، ويتولى الأب الشؤون الأساسية للأطفال الأكبر سناً. كما أنه قد يكون من المفيد أن تظهر الأم بمظهر الشفيق والشفيع، ويظهر الأب بمظهر المربي الحازم صاحب الكلمة النهائية. ومن خلال هذا التفاوت يكون التنسيق بين الأبوين.

ينتج عن النزاع بين الأبوين، وعن اتفاقهما على سياسة تربوية واحدة أضرار بالغة، ليس أخطرها حيرة الطفل وهشاشة شخصيته وتميع بعض القيم لديه، ولا سيما تلك القيم التي يشعر أنها موضع شد وجذب بين أبويه.

وينبغي ألا ننسى أهمية التنسيق بين باقي أفراد الأسرة؛ فالأجداد والجدات والعمات والخالات والإخوة الكبار يستطيعون إجهاض العديد من السياسات والجهود التربوية للأبوين، إذ يبدون العطف الزائد حيث ينبغي الحزم. وفي بعض الأحيان قد تقول الجدة للأب على مسمع من الطفل: حين كنت في مثل سنه كنت تفعل الأفاعيل، وابنك الآن أحسن منك وأهدأ، أو

أكثر اهتماماً بالدراسة... وهذا ضار جداً بمكانة الأب في نفس الطفل.

وأخيراً فأتمنى أن يأتي اليوم الذي نتمكن فيه من إيجاد قنوات اتصال فعالة بين البيت والمدرسة حتى نستطيع إيجاد التنسيق والتعامل بينهما. وأتصور أن دور المرشدين الاجتماعيين يجب أن يتركز على نحو أساسي في هذه المهمة العظيمة.

٥٨. أساليب متنوعة للإقناع

يولد الإنسان مزوداً بالقليل من المبادئ التي تساعده على استيعاب الأحداث المختلفة، لكنه مزود بإمكانات كبيرة واستعدادات عظيمة للارتقاء في كل جوانب الحياة. وقد ذكرنا في غير موضع ضرورة الاهتمام بتكوين العقل السببي لدى الطفل، ومحاولة جعل تصرفاته دائماً قابلة للفهم والتعليل. والحقيقة أن إقناع الطفل من السهل الممتنع؛ فهو يقتنع بسرعة، ويتراجع عن قناعاته أيضاً بسرعة، مما يجعلنا نحتاج دائماً إلى أن ننوع في أساليب إقناعه، وأن نعتمد في ذلك الأسس المنطقية، إلى جانب الأعراف الاجتماعية والمعلومات العامة وسوق الأمثلة، وإبراز بعض النماذج الفاقعة في الخير والشر.

وقبل أن نتحدث عن أي شيء من ذلك، أحب أن ألمح إلى أن درجة اقتناع الطفل بما نقوله له تتوقف أولاً على مدى انسجامنا مع أنفسنا، (ليس فينا من هو منسجم مع نفسه بصورة كاملة)، ومدى شعوره بمصداقيتنا. وحين نترك ما نأمر بفعله أو نرتكب ما ننهى عنه، فإن الصغير سوف يهز رأسه معلناً الموافقة الظاهرية، وفي داخله أسئلة واعتراضات بل ورفض تام لما نقوله في بعض الأحيان.

والآن لنوضح أسلوباً لإقناع الطفل بأمر حميد يقوم به، وأسلوباً آخر لإقناعه بالكف عن عادة سيئة.

إذا وجدنا لدى أحد الأبناء عزوفاً عن المطالعة وإعراضاً عن القراءة والتثقيف، فإن في إمكاننا أن نحاول تغيير موقفه ذاك من خلال الترغيب في طلب العلم والحث على اصطحاب الكتاب معتمدين على المفردات الآتية:

- نوضح للطفل أن طلب العلم من أعظم القربات إلى الله – تعالى – عندما تتوفر النية الصالحة.

- نوفر في مكتبة المنزل الكتب التي تجذب الطفل، كتلك القصص والروايات المخصصة للأطفال، وكالكتب التي تترجم لبعض الرجال العظماء التي كتبت بأسلوب سهل وجذاب.

- نوضح للطفل أن المقدار الفلاني من مصروفه الشهري مخصص لشراء مجلة أطفال، أو كتيب مما يختاره ونوافق عليه.

- نسأل إخوة الطفل المحبين للقراءة – إن وُجِدوا – عن انطباعاتهم عما قرؤوه، ونناقشهم في ذلك، ونستوضح منهم ما استفادوه.

- نشرح لأبنائنا على اختلاف أعمارهم أن ما يكتسبونه من معارف من خلال القراءة كثيراً ما يكون أهم مما ورثوه من أهليهم من نبوغ وذكاء.

- نوضح للطفل أن كثيراً من الأخطاء التي يقع فيها الناس هي نتيجة جهلهم، ولذا فالذي يريد أن يتجنب الخطأ مطالب بالمزيد من القراءة. نذكر له دائماً أن حب القراءة لا يعني ترك اللعب والتخلي عن الترويح عن النفس،

فالجمع بين هذه الأمور مطلوب، لكن لا بد من ساعة على الأقل للمطالعة في غير كتب المناهج كل يوم.

- نذكر للطفل نماذج من سير علمائنا الكبار الذين صار يشار إليهم بالبنان نتيجة حب القراءة والحرص على طلب العلم.

أما ما يمكن اتباعه من أساليب في جعل الطفل يقلع عن عادة قبيحة، ولتكن فتح حقيبة أخيه بغير إذنه، فنذكر منها الآتي:

- نذكّر الطفل دائماً بأن الاطلاع على الأشياء الخاصة بالآخرين من غير إذنهم غير جائز شرعاً، وأن المرء يعاقب على ذلك. وحين يتم ذلك بين أناس يعيشون في بيت واحد فإنه ينطوي على نوع من الخيانة والغدر.

- نشرح للطفل بأن من خلق المسلم أن يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به. وهو لا يحب أن يطلع أحد على ما يعده سراً من أسراره.

- هذا العمل ينم عن تطفل وفضول وهو ينافي الشرف والمروءة.

- تكون البيوت محترمة حين يحترم أبناؤها خصوصيات بعضهم بعضاً.

٥٩. محاربة الكذب

إن صفة الكذب من أسوأ الصفات التي يمكن أن يكتسبها الإنسان. وحين يستسهل المرء الوقوع في الكذب، فإنه يكون قد بات في وضعية تشجعه على ارتكاب كل الموبقات. وهذا واضح في قوله ﷺ: «إن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً». كما أنه يصبح إنساناً غير موثوق، فيفقد بذلك التقدير من الآخرين.

من أين يا ترى ينشأ الكذب؟

إن في إمكاننا القول: إن الكذب ينشأ لدى الأطفال من ثلاثة مصادر:

١- اختلاط الحقيقة بالخيال لديهم، فابن الرابعة لا يفرق في كلامه بين ما هو حقيقي وما هو من نسج الخيال المفرط، ولذا فإنك تراه يقص حكايات تتسم بالطول وسعة الخيال. وحين يصبح في الخامسة يظن أن خياله الجامح هذا يساعده على أن يبرز أفكاره التي يؤمن بها وكأنها حقيقة واقعة.

ويبدأ الطفل بالرجوع إلى الحقيقة من خلال قراءته للاستغراب في ردود أفعالنا، ومن خلال تعرفه على طبيعة الوجود والمحيط الذي يعيش فيه. لكن يبدو أن بعض الأطفال يظل يحتفظ ببعض الأخيلة في تعامله مع الأشياء، وتظل تلك الأخيلة فاعلة إلى حد ما في تقديره للأشياء وإخباره عن بعض

الوقائع. وهنا تبرز مسؤولية الأبوين والمعلمين في رده إلى الواقع وتعليمه مبادئ التفكير الموضوعي.

٢- نمو الحاسة الخلقية وتبلور المبدأ الخلقي لدى الطفل يحتاجان إلى وقت، ولهذا نجد ابن السادسة ينكر أنه أساء التصرف، ويختلق المعاذير للخروج من الورطة التي وجد نفسه فيها. وعلى هذا فكلما كانت إساءات الطفل أكثر وأخطاؤه أعظم كانت إمكانية وقوعه في الكذب أكبر. ولكن هذه الظاهرة تبدأ بالتلاشي عند ابن السابعة، كما أن ابن الثامنة يلتزم الصدق في كل ما له اهتمام خاص به. أما ابن السابعة فيصدق في معظم أحاديثه، ويصبح الفرق بين الحقيقة والخيال واضحاً جداً لديه. ويتعلم من خلال الحياة الاجتماعية أهمية الصدق وسوء ممارسة الكذب. وهكذا فتعلم الطفل للصواب والخطأ وتقبله لهما ينموان ببطء. والأسرة والمجتمع هما اللذان يساعدان على اكتمال ذلك النمو، أو يوقفانه عند حد معين.

٣- الطفل الذي ينشأ في أسرة تلتزم الصدق على نحو تام تقوى لديه الحاسة الخلقية، ويكتمل لديه الالتزام الخلقي. والأسرة التي تمارس الكذب لا تساعد أبناءها على امتلاك فضيلة الصدق، وإنما تسهل لهم الاستمرار في أخيلة الطفولة، وتضع حدوداً عقلية وشعورية لاكتمال تلك الفضيلة لدى

أبنائها. فهل يدرك الأب الذي لا يلتزم الصدق، والأم التي تمارس الكذب المسؤولية المضاعفة لهما عن تصرفاتهما؟

استمرار الكذب في حياة الطفل وعدم تراجعه عنه مع تقدم السن، يعد من العلل الخطيرة التي تحتاج إلى الملاحقة والمتابعة المستمرة. وقد صح في الحديث عن عائشة – رضي الله عنها – أنه ﷺ كان إذا اطلع على أحد من أهل بيته كذب كذبة لم يزل معرضاً عنه (أي مجافياً له) حتى يُحدث توبة.

لا بد من أخذ العهود على الطفل بالتزام الصدق وتشجيعه على ذلك، والعفو عن زلته إذا صدق، فإذا لم تنفع معه أساليب النصح والمتابعة فعلينا حينئذ أن نستخدم العقوبة الرادعة.

٦٠. نقد السلوك لا نقد الذات

لا بد للأبوين من ممارسة عملية النقد تجاه طفلهما، فالأمور لن تسير دائماً على ما يرام، لكن المشكلة أننا أثناء ممارسة النقد كثيراً ما نتجاهل كيان الطفل، ونظن أن من المفروض عليه – بحكم قرابتنا له وقيامنا على شؤونه – أن يستمع ويمتثل لكل ما نقوله له. وهذا غير صحيح، فالطفل يمتلك مشاعر كاملة ودرجة من العقلانية منخفضة، ولذا فحاجته إلى الملاطفة والمداراة أعظم من حاجة الكبير. ومن هنا فإن علينا أن نقلل من الوعظ المباشر والنقد الحاد ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً، فنحن لا نريد أن نحطم كبرياء الطفل، ونجرح كرامته في سبيل تقويم شيء من اعوجاجه. إن التلميح والنصيحة غير المباشرة يؤديان إلى الإصلاح الذي ننشده، مع ترقيتهما لمدارك الطفل، على حين أن التقريع المستمر يفقده ثقته بنفسه، ويربك وعيه.

إننا جميعاً صغاراً وكباراً نقبل أن ينقد الآخرون بعض مواقفنا أو بعض تصرفاتنا أو بعض صفاتنا... لكننا جميعاً أيضاً نرفض أن تصنَّف تصنيفاً دائماً في فئة الأغبياء أو اللصوص أو الأشرار... وإننا مع الأسف كثيراً ما نصنف أبناءنا تصنيفات إن كانت صحيحة فهي غير مناسبة. وكم سمعنا من الآباء من يقول: ابني فلان مستواه العقلي أقل من باقي إخوته. ومن يقول: ابني فلان يئست منه، ولا فائدة أرتجيها من وراء تربيته. ومن يقول: فلان إذا حصل على الابتدائية فذاك كثير، وهكذا...

وقد يحدث هذا على مرأى ومسمع من الولد، وهذا مؤذ جداً للصغار،

حيث إن الطفل يكوّن صورته عن نفسه من خلال ما نقوله عنه، بل ربما اتخذ ما نقوله عنه ذريعة للتهاون بالدراسة أو الاستمرار في ارتكاب أخطائه.

على الأبوين أن يحذرا الكلمات القادحة العابرة، فالطفل يلتقطها، ويُعمل فيها خياله، فتسبب له أرقاً وخوفاً والأهل غافلون لا يحسبون أنهم قالوا ما يسوء. وعلى سبيل المثال فإن إحدى الأمهات قالت يوماً: إن ابنتي فلانة تشبه الصبيان، وحين ولدت كنا نظنها ذكراً، ولذا سميناها سعدية لأن اسم أبيها سعد. هذا يؤرق الطفلة، ويجعلها تخاف من أن تكون غير مرغوب فيها وناقصة الأنوثة.

إن علينا أن نتعامل مع أخطاء الطفل على طريقة (طي الملفات) فإذا وقع في خطأ كبير أو صغير في مرحلة من مراحل حياته، ثم أقلع عنه صار لزاماً علينا أن ننسى ذلك الخطأ، وأن نساعده على نسيانه، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له. لكن مما يؤسف له أن بعض الآباء والأمهات لا يفتؤون كلما غضبوا أن يذكّروا ولدهم بالأخطاء التي ارتكبها استدلالاً منهم على تأصل السوء فيه!

سيظل من المهم ونحن نعالج أخطاء الصغار ألا نقع في أخطاء هي من اختصاص الكبار.

٦١. الطريق السريع إلى عالم الأطفال

تثبت تجارب الأمم ومشاهدات الأحداث أن البشر كباراً وصغاراً هم كائنات عاطفية في المقام الأول. والجانب العقلاني فيهم أضعف مما نظن؛ ولذا فإن معظم الناس توجههم عواطفهم في معظم شؤونهم، ويتصرفون على مقتضى عقولهم ومسلماتهم الفكرية. الأطفال – كما ذكرنا – مشاعرهم كاملة وتجاربهم وعقولهم محدودة، ولهذا السبب فإن المسائل العاطفية تكون شديدة التأثير فيهم.

إن عالم الأطفال عالم غريب والتأثير فيه يتطلب أن نتمكن من الدخول إليه، فما هو الطريق الذي يوصلنا إليه، وما هو الباب الذي يمكننا أن نلج منه؟

ليس هناك سوى باب واحد هو باب اللطف والرحمة والعطف والحنان والبذل؛ من خلال الهدية والخدمة والملاطفة والبسمة والنظرة تطفح نفوس الأطفال بالسرور والرضا والبشر والأمن، وفي تلك اللحظة يصبح الباب مفتوحاً للدخول إلى نفوسهم وعقولهم وزرع القيم والمبادئ والمفاهيم والأفكار فيها. وهذا ما يجب أن نفعله. وقد كان رسول الله ﷺ يقبّل الأطفال ويداعبهم، ويمسح على رؤوسهم، ويتحفهم بما تيسر لديه...

وكان بعض ما يفعله مستنكراً لدى بعض الناس وفي عرف بعض العرب

في ذلك الزمان؛ فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قبّل النبي ﷺ الحسن ابن علي، فقال الأقرع بن حابس: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحداً. فقال رسول الله ﷺ: «من لا يرحم لا يُرحم». وروى ابن عساكر عن أنس – رضي الله عنه – قال: كان ﷺ أرحم الناس بالصبيان والعيال.

بعض الآباء يفعل عكس ما ذكرناه، فهو لا يقدم النصيحة لابنه إلا بعد وجبة دسمة من اللوم والتوبيخ، فتقع تلك النصيحة في غير موضعها، ولذا فنتائج تربيتهم كثيراً ما تكون مخيبة للآمال.

آباء آخرون لا يتنبهون للمعاني التي ذكرناها، فيحرمون الأطفال من كل إيحاء إيجابي، ويتخذون مما يستحق الأطفال عليه الشكر والتشجيع سبيلاً إلى صد الطفل ووضع الحجب بينهم وبينه؛ فقد يحدث أن يقول الطفل: حفظت سورة من القرآن، فيقول له الأب: وهل كتبت واجبك؟ وقد تقول البنت صليت الظهر. فيقول الأب: وهل ساعدت والدتك في المنزل؟ وهكذا..الطفل لم يخبرك بما فعل إلا ليسمع منك كلمة الرضا والتشجيع، فأسمعه إياها، وبعد ربع ساعة سله عما بدا لك.

٦٢. تفويض تربية الطفل للخادمات

صار وجود الخادمة في كثير من البيوت معدوداً في الضروريات، ومع أن الحاجة إليها قد تكون قائمة فعلاً، كما لو كانت الأم كثيرة الأطفال، أو كانت تعمل خارج البيت؛ إلا أن من الصحيح أيضاً أن بعض النساء يأتين بالخادمة إلى بيوتهن بدافع التهرب من مسؤولية التربية، أو حباً في الإخلاد إلى الراحة، أو بدافع التباهي والافتخار أمام الصديقات... ومهما تكن الحاجة إلى وجود الخادمة في المنزل حقيقية، فإنه لا يصح في حال من الأحوال تفويض مسألة تربية الأطفال للشغالات والخادمات. يمكن للخادمة أن تساعد الأم في تنظيف البيت أو في الطبخ، لكن العناية بالأطفال يجب أن تظل محصورة في الأم وحدها؛ وذلك للاعتبارات التالية:

١- قد تكون الخادمة غير مسلمة، وهذا يعني أنها إن لم تلقن الطفل شيئاً مما تؤمن به في دينها، فإنها لن تلقنه شيئاً من معاني الإسلام. كما أن كثيراً من القيم التي تؤمن بها تلك المرأة لا تتفق مع القيم الإسلامية. وحين تكون الخادمة غير المسلمة قريبة جداً من الأطفال، فهذا يعني – على الأقل – أن يجد الطفل نموذجين للاقتداء: أمه والشغالة. وهما نموذجان مختلفان قطعياً

لاعتبارات كثيرة.

٢- إن قيام الخادمة على تربية الأطفال يضعف ارتباطهم بأمهم، فأبناؤنا يحبوننا لأننا نقدم لهم الكثير من غير شروط، فإذا قامت الخادمة بوظيفة الأم، فما الذي ستقدمه الأم لطفلها؟ وكيف ستجعله يشعر بالامتنان لها؟

٣- إن الخادمات والشغالات، ينحدرن - ولو كن مسلمات - من أسر يغلب عليها الجهل والفقر، وربما عدم الالتزام؛ ولذا فإن المفاهيم والقيم التي يحملنها عن التربية والارتقاء بالأطفال هي غالباً مفاهيم وقيم قاصرة أو مشوهة. والطفل بطبيعته شديد التأثر بما يرى ويسمع، ولن يكون هناك أي مصلحة في أن تنتقل المفاهيم المغلوطة والتقاليد والعادات الهابطة إلى ذلك الطفل البريء.

٤- كان الناس الذين يرجون لأبنائهم مستقبلاً زاهراً يعهدون بأبنائهم إلى أفضل المربين والمؤدبين وأكثرهم حنكة وخبرة، كما فعل هارون الرشيد حين عهد إلى الكسائي إمام الكوفيين في النحو بتربية ولديه الأمين والمأمون. أي أن الأسر المحترمة الحريصة على تكوين أطفالها التكوين الصحيح تختار لتربيتهم أشخاصاً أكثر تفوقاً وأعرف بمسائل التربية من الأب والأم. والنساء اللواتي يكلن تربية أطفالهن إلى الخادمات يفعلن العكس من ذلك، إنه نوع من

الانتكاس والنكوص الذي ليس له أي مسوغ مقبول!

وأعتقد أن الإعلام مقصر في بيان مخاطر هذه القضية وبيان الأبعاد السيئة لها. كما أن المدارس لم تضع أي خطط لمعالجة الآثار السيئة لأخطاء بعض الأمهات في هذه المسألة.

٦٣. التربية بالحكاية والقصة

ربما كان قص الحكايات الهادفة على الأطفال أفضل أسلوب لتثبيت بعض المعاني لديهم، بعيداً عن الأمر والنهي والوعظ المباشر. كما أنه مفيد جداً في إخراج الطفل من إيحاءات البيئة المحلية المحدودة والتي قد تكون سيئة إلى بيئة أرحب وأفضل، تتمثل فيها المبادئ الأخلاقية ومعاني الاستقامة والنجاح. أضف إلى هذا أن القصة تمكّن الطفل من إدراك الأمور العقلية المجردة، مثل الإيمان والإخلاص والحب والتفاؤل، حيث إن القصة بما فيها من أشخاص وأحداث تساعد على تقريب تلك المعاني والمفاهيم بصورة مجسَّدة حية. إن القصة تساعد الطفل على تملك مهارة الإصغاء والقدرة على التركيز والانتباه، كما تساعده على تنمية قدرته على لمّ شتات الأفكار وتقديمها على نحو تسلسلي متتابع متفق مع المنطق.

في الماضي كانت البيوت – لفقرها في الأشياء – مفعمة بالمعاني الإنسانية، وما يمكن أن يصرف الأم عن أطفالها من أجهزة بث، وأشرطة مسجلة كان هو الآخر غير موجود، ولذا فقد كان لقصص الأمهات والجدات أعظم الأثر في صياغة أخيلة الطفل وأحلامه، وفي ترسيخ بعض القيم والمبادئ لديه.

حكايات ما قبل النوم ذات نكهة خاصة في هذا الشأن، حيث تكون الأم إلى جوار سرير ابنها قبل نومه، وهذا مما يزيد تعلقه بها، ويضفي عليه الشعور بالأمن والاطمئنان. كما أن معاني القصص التي يسمعها الطفل قبل النوم تترسخ في ذاكرته، ويعمل الدماغ على برمجتها في التركيب الفكري للطفل أثناء نومه. ولهذا فإن على الأم أن تختار القصص الهادفة والخالية من النهايات المفزعة أو المشتملة على الخرافات، أو التي تتحدث عن وقائع أبطالُها حيوانات مخيفة وشرسة.

يجب أن تكون وقائع القصة منسجمة مع سن الطفل، وإن كثيراً من القصص الموجودة في الأسواق الآن مكتوب عليها عمر الطفل الذي تناسبه؛ إذ إن القصص إذا كانت غير ملائمة لعمر الطفل، فإنها تدفعه إلى الملل والسأم، أو تربك فهمه إذا كانت أعلى من مستواه.

إن تربيتنا تهدف – على نحو عام – إلى جعل الطفل يتشرب الأخلاق والمفاهيم والعادات التي تجعل منه إنساناً صالحاً ناجحاً؛ ولذا فإن كل الحكايات التي نحكيها له يجب أن تستهدف هذين المعنيين. قصص الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – توفر للطفل عدداً كبيراً من المبادئ التي يجب أن تختلط بلحمه ودمه، مثل الإيمان بالله – تعالى – والصبر والثبات على المبدأ،

والصدع بالحق وتحمل الأذى، إلى جانب معرفة الفروق التي تميز بين الإيمان والكفر، وبين المهتدين والضالين.

ومن المهم كذلك أن يتعرف الطفل على قصص أبطال الإسلام وعلمائه الذين كان لهم دور بارز في الدفاع عن الأمة وتثقيفها والارتقاء بها. وهي قصص كثيرة ومكتوبة اليوم بلغة سهلة وميسرة، وهي متوفرة في كل مكان.

من المهم أن نبعد القصص والروايات البوليسية التي تعلم الأطفال أساليب الإجرام، وتهوّن عليهم الوقوع فيها. وكذلك إبعاد القصص المشتملة على مديح النجاح الدنيوي ولو كان خارج أي إطار أخلاقي، بالإضافة إلى القصص التي يقع أبطالها في الموبقات مثل القتل وشرب الخمور والزنى.

إن القصة سلاح شديد الفعالية، وعلينا أن نعرف متى نستخدمه وكيف نستخدمه.

٦٤. تحري لقمة الحلال

هذا الملحظ يعود إلى شخصية المربي، وهو ملحظ في غاية الأهمية حيث يتصل بإحدى المسؤوليات الكبرى للآباء على نحو خاص؛ إذ إنهم هم الذين يقومون – غالباً – بكسب رزق الأسرة. في عصرنا عصر العولمة فقد كثير من المسلمين الإحساس بالهدف الأكبر الذي يجب أن يسعى إليه كل مسلم، والذي يجب أن تصب فيه كل أنشطته في هذه الحياة. وما ذلك إلا لضعف التربية التي تلقوها في الصغر، وإلا لأن العولمة تركز على النموّ الاقتصادي وتساعد على إهمال كل جوانب الحياة الإنسانية الأخرى.

قضية تحري الرزق الحلال هي قضية شرعية في المقام الأول، فالمسلم مطالب بألا يأكل إلا طيباً، وألا يطعم أهل بيته كذلك إلا طيباً.

الأمر بأكل الطيبات والبعد عن المحرمات والخبائث أمر إلهي وجهه الله – تعالى – لأنبيائه وأتباعهم على مدار التاريخ؛ وفي الحديث الصحيح: «إن الله – تعالى – طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال – تعالى – : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث

أغبر يمد يديه إلى السماء: يارب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك».

إن الذي لا يبالي بما يكسب، فيحطب ما وجده سواء أكان من حلال أم من حرام: من ربا أو رشوة أو عقد باطل أو أجر لم يؤدّ عمله أو غضب أو مال عام...

إن هذا وأضرابه يخسرون خسارة عظيمة، حيث يتحملون إثم كسبهم، ويغذون أهليهم بالحرام، وفي ذلك غش لهم. وإذا تصدقوا لم يُقبل منهم كما ورد في حديث مسلم: «لا يقبل الله صلاة بغير طَهور، ولا صدقة من غلول».

وسئل ابن عباس – رضي الله عنهما – عمن كان على عمل – أي موظفاً – فكان يظلم، ويأخذ الحرام، ثم تاب، فهو يحج ويعتق ويتصدق منه، فقال: «إن الخبيث لا يكفِّر الخبيث». وقال الحسن البصري: «أيها المتصدق على المسكين ترحمه، ارحم من قد ظلمت».

لو تساءلنا عن الصورة التي يكوّنها الطفل عن والد يكسب رزقه من الرشوة – مثلاً – كيف تكون، وهو يقرأ ويسمع أن الله لعن الراشي والمرتشي؟! إن الطفل كلما كبر ووعى هذا المعنى، كبر الاحتقار في قلبه لذلك الأب الذي لا يرعوي عن محارم الله!

إن كثيراً من الأمهات يُلجئن الآباء إلى طرق الكسب الحرام من خلال إلحاحهن على التوسع في الاستهلاك، ومن خلال طلباتهن التي لا نهاية لها. وإذا وقعوا في الحرام لم يلقوا منهن النهي والتخويف من الله – تعالى – وإنما يلقون منهن التشجيع على الاستمرار!

إن الأم المؤمنة تدرك أن الله – تعالى – لا يبارك في الحرام، ولا يبارك في حياة تستمد نموها ومفاخرها منه، ولهذا فإنها ترفق بزوجها فلا تكلفه ما لا يطيق، وإذا جاءها بمال من مصدر مجهول دققت عليه حتى تتأكد من أن زوجها ما زال على الطريق الصحيح. وإني أعتقد أن حساسية معظم النساء تظل نحو مسألة الكسب الحرام أشد وأقوى، وفي ذلك ما يجعلنا نثق في أن الأم المسلمة لن تتخلى عن واجبها في النهي عن المنكر والاحتساب على زوجها الذي هو أقرب الناس إليها وأحوج الناس أيضاً إلى مؤازرتها.

٦٥. التوازن بين الحماية والتدليل

التوازن بين الأساليب التربوية المختلفة قد يكون أهم ما يحتاج المربي إلى البصيرة فيه، فنحن حين نربي نقوم بمحاولة دمج الطفل في المجتمع من دون تجاهل طبيعته وخصوصياته، وليس هذا بالأمر السهل. إن مشكلة معظم الناس أنهم نزاعون إلى التطرف بفطرتهم، حتى لكأنه شيء مستقر في التراث الجيني للبشرية. وقد صار من المألوف أن نرى كثيراً من الأسر تدلل أطفالها، وتلبي جميع رغباتهم مع رقابة شبه معدومة على تصرفاتهم وعلاقاتهم. كما صار من المألوف أن نرى من يربي بطريقة (كسر العظام) ولغة التهديد والوعيد وحرمان الطفل مما يشعر أنه حق طبيعي له، بالإضافة إلى الكثير من الشك والرقابة والمتابعة.

الإفراط في التدليل يخرّج للمجتمع – في الغالب – طفلاً واثقاً من نفسه، وقد لا يخلو من الشعور بالأنانية والكبر إلى جانب ضعف الشعور بالمسؤولية وربما ضعف الالتزام أيضاً.

أما من يتربى بالأسلوب الثاني فكثيراً ما يكون مفعماً بمشاعر القهر والإحباط والدونية والانتقام، كما أنه في الغالب يسلك سلوكين سلوكاً يلبي متطلباته الذاتية، وسلوكاً يرضي به أهله والمجتمع من حوله.

تجارب الأمم تشير إلى أنه لا بد من المزج في تربية الطفل بين عنصرين:

عنصر حب الطفل ومراعاة مشاعره وتلبية بعض رغباته، وعنصر التوجيه والنظام والمتابعة. واتباع أحد الأسلوبين ليكون أساساً في التربية لا يتم وفق إرادة الأبوين غالباً، وإنما تحدده طبيعة التربية التي تلقياها، إذ إن من رُبّي بطريقة يغلب عليها طابع التدليل فإنه يسلك المسلك نفسه في تربية أولاده غالباً. ومن رُبّي بطريقة يغلب عليها طابع القسوة يكرر تلك الطريقة مع أولاده في معظم الأمر. كما أن وضعية الطفل الخاصة والبيئة المحيطة به تتدخل أيضاً في هذا الشأن.

إذا وجد الأبوان أن الأسلوب المتبع يغلب عليه طابع التدليل والاستجابة إلى رغبات الطفل، فلا بد من أن ينتبها إلى الأمور التالية:

١- عدم الخضوع لكل ما يشرطه الطفل، وعدم إعطائه كل ما يريده، لأن هذا أمر لا نهاية له، وقد يفسد من نربيه.

٢- التأكد من أن الناشئ ملتزم بالآداب العامة، ولا يهمل واجباته الدينية.

٣- معرفة الأطفال والفتيان الذين يخالطهم ومساعدته على اختيار أصدقائه من بين الصالحين منهم.

٤- إشعاره بين الفينة والفينة أننا موجودون، وأن في البيت سلطة ضابطة، كلمتها هي التي تنفذ في نهاية الأمر.

أما إذا وجد الأبوان أن طابع تربيتهما تغلب عليه القسوة والشدة نسبياً،

فعليهما الاهتمام بالأمور التالية:

١- إشعار الطفل من حين إلى آخر أن كل قسوتهما عليه تصب في مصلحته، وذلك من خلال الملاطفة والمداعبة، وتقديم ما يجعله مسروراً.

٢- لا يصح أن نتابع الطفل إلى درجة تنتهك معه خصوصياته، فلا تفتح أدراجه، ولا تفتش حقيبته – إلا في حالة طارئة – ولا تتابع مكالماته الهاتفية. أي يجب أن يشعر أنه موثوق به.

٣- مراعاة وضعيته الخاصة، فلا يُحمَّل ما لا يطيق، ولا يطلب منه من الإنجاز ما يعده شاقاً عليه، ولا يطلب منه أن يكون نسخة عن أخيه أو ابن عمه...

٤- على الأبوين أن يتكلفا الرفق والنعومة في التربية حتى يصبح ذلك طبعاً لديهما.

أما كيف يعرف المرء نفسه أنه قاس في التربية أو لطيف، فهذا ما يصعب الجواب عليه، وربما كانت المقارنة مع ما هو سائد في البيئة مما يفيد في هذا الشأن.

٦٦. الطفل الغضوب

من النادر أن نجد طفلاً لا يغضب. وإذا وجدناه فعلينا ألا نفرح؛ لأن ذلك قد يكون علامة على بطء النمو والنضوج لديه. حين يتجاوز الطفل عامه الأول، ويتحكم في عملية المشي، وتأخذ قدراته العقلية واللغوية في النمو التدريجي يكون قد بدأ يطور رغباته الخاصة وميوله الفردية. فإذا ما وجد عرقلة لذلك التطور، أو تعرض للمضايقة، فإنه يدرك ذلك فينتابه الغضب. ومن بين ما يثير غضب الطفل نقده ولومه والتجسس عليه، ولفت نظره إلى الصواب، ومقارنته بغيره، وتكليفه بأعمال صعبة فوق طاقته، والتدخل في مشاريعه الخاصة بلعبه...

الطفل يعبر عن عضبه في سنواته الأولى بأعمال غير موجهة ضد أحد؛ لأن غريزة القتال لديه لا تكون قد تطورت تطوراً كافياً؛ وذلك مثل الصراخ وإلقاء نفسه على الأرض والرفس بالقدمين والقفز إلى أعلى وأسفل... وبعد سن الرابعة تخف هذه التعبيرات لديه، ويستبدل بها استعمال بعض الألفاظ الاجتماعية، والتي قد تصل إلى السب والشتم والتهديد. ولا ريب أن درجة انفعال الغضب لدى الأطفال ليست واحدة، كما أن رضا الأطفال بعد

الغضب يختلف طولاً وقصراً من طفل إلى آخر.

علينا لمواجهة غضب الأطفال أن نتصرف في حدود المفاهيم والإجراءات التالية:

- علينا أولاً ألا نغضب إذا غضب أحد أولادنا، وإنما نحاول فهم أسباب غضبه؛ فإذا كان بسبب الجوع مثلاً أمنّا له الطعام، وسعينا ألا يتأخر عن موعده. وإن كان بسبب تعطل إحدى عجلات لعبته – مثلاً – أصلحناها له، أو وعدناه بشراء غيرها. وإذا كان بسبب شدة المتابعة في البيت وتحديد حركة الطفل ومنعه من اللعب بحرية أعدنا النظر في ذلك وبحثنا عن مكان يلعب فيه بحرية وأمان وهكذا...

- إن الطفل إذا عبر عن غضبه بمجرد البكاء والصراخ دون أن يكسر شيئاً أو يؤذي نفسه، فلنتركه يبكي حتى يبلغ الذروة في ذلك، ونتشاغل عنه. ويمكن أن نقول له: إذا انتهيت من بكائك فتعال إلى الطعام. المهم ألا يشعر أنه يستفيد من بكائه في فرض شروطه وتلبية رغباته.

- لا فائدة من مناقشة الطفل الغاضب وإيضاح الأمور له. ولذا فالأفضل أن نقلع عن الكلام معه أثناء غضبه، فإذا هدأ غضبه، تحدثنا معه بما شئنا.

- بعض الأمهات يمنعن الطفل من البكاء وإظهار الاحتجاج على بعض الأمور؛ وهذا غير صحيح؛ فالتعبير عن الغضب ينهيه، وكتم الانفعالات يسيء إلى علاقة الطفل الطيبة بأمه، ولا سيما إذا أسكتته عن طريق الضرب أو التهديد.

- نعلّم الطفل على سبيل التدريج كيف يعبر عن غضبه قبل تفاقم الأمور، ونشجعه دائماً على أن يتحدث عما لا يعجبه من أبويه أو زملائه أو مدرسيه، ونجعله يشعر أننا قلقون لقلقه، ومستعدون لمساعدته.

٦٧. الطفل العنيد

لا نختلف في أن الصغار – كالكبار – ذوو طبائع مختلفة، ففيهم من هو سلس القياد سهل الأخلاق، ينفذ كل ما يطلب منه، وفيهم من ليس كذلك. ولكن هناك مرحلة عمرية يُبدي فيها كثير من الأطفال الحرون والمعاكسة، وهي حين يكونون في سن ما بين الثانية والثالثة.

وأنا شخصياً أرى أن ما يظهر من رفض شديد لكل شيء من قبل الطفل في تلك السن، إنما هو سلاح زوده الله – تعالى – به للحفاظ على كيانه من الإذابة في المحيط الاجتماعي، حيث إننا معاشر الكبار نحاول دائماً استخدام التربية أداة لصهر الأطفال في المجتمع، وأداة لجعلهم يشبهوننا في كل شيء. وليس هذا بالقرار الصائب. وليس الحرص على جعل أبنائنا نسخاً مكررة عنا بالشيء الحميد، فالثراء الثقافي والحضاري لا يأتي من خلال التطابق، وإنما من خلال التنوع.

الطفل بعد السنة الأولى من عمره يبدأ في معارضة أمه. أما في السنة الثانية، فيبدأ في معارضة نفسه، لأنه يصعب عليه تقرير ما يريده. وإذا اتخذ قراراً غيّره بسرعة. إنه يتصرف تصرف شخص يشعر بأن هناك من يحاول التسلط عليه رغم أنه ليس هناك من يضايقة على الإطلاق؛ إنه هو نفسه كثير

التسلط. وإذا تدخل أحد في شؤونه الخاصة، فإنه يرفض ذلك بقوة. إن تصلب الطفل في هذه المرحلة من العمر يعود إلى أن طبيعته تملي عليه أن يقرر الأمور بنفسه، وأن يقاوم ضغوط الآخرين. ونظراً لنقص خبراته في التعامل مع هذه الأمور فإنه يجد أن أفضل وسيلة هي الرفض. وبعض الأطفال يبدي انزعاجاً شديداً من اجتماع أبويه على توجيهه، وكأنه يشعر أنه أصبح في مركز ضعيف تجاه شخصين قويين. وكثيراً ما يكون الأب هو المرفوض.

كيف نتعامل مع طفل عنيد؟

- علينا أن نعرف أولاً أن لكل مرحلة من عمر الطفل خصائص نفسية معينة، قبل أن تتبلور الملامح النهائية لشخصيته، ويبلغ درجة معقولة من النضج. ولذا فإن على الأبوين ألا يكوِّنا انطباعاً نهائياً عن طفلهما إذا شاهدا منه عناداً في السنة الثانية أو الثالثة أو الرابعة من عمره، فذاك أمر طبيعي.

- إن بعض العناد يزرعه الآباء والأمهات بأيديهم في نفس الطفل من خلال التدليل الزائد أحياناً، ومن خلال عدم اتباع سياسات تربوية واضحة معه أحياناً أخرى، حيث يؤدي اضطراب المربي في التعامل مع من يربيه إلى اختلاط المفاهيم لدى الناشئ، وإلى ردود أفعال سيئة.

- إن التفاهم مع ابن الثانية صعب في الحقيقة، ولا جدوى تذكر من وراء

إقناعه بأمر من الأمور؛ ولذا فإن على الأم – خاصة – أن تتفهم أوضاع طفلها، ولا تكثر التدخل في شؤونه، ولا تستعجله وهو يرتدي ثيابه، أو يتناول طعامه، ولا تكثر الجدل معه، وإنما تأخذ بيده، وتحدثه عن أمور تستهويه، وتلعب معه وتلاطفه.

– قد ينشأ العناد لدى الطفل بسبب الفراغ الذي يعاني منه، وبسبب الوحدة، حين لا يكون في البيت طفل قريب من سنه؛ ولهذا فإن من جملة العلاج الوقائي لموضوع العناد توفير الألعاب للطفل، وإتحافه بالجديد منها ما كان ذلك ممكناً. كما أن تعريفه على بعض أبناء الجيران ليلعب معهم مفيد في هذا الشأن.

٦٨. الطفل الموهوب

في العالم اليوم شعور متزايد بضرورة الاهتمام بأولئك الذين حباهم الله – تعالى – إمكانات ذهنية كبيرة، حيث إن الموهوبين والمبدعين يطبعون عصرهم بطابعهم الخاص، ويسهمون على نحو استثنائي في دفع عجلة التقدم وإثراء الحضارة الإنسانية.

وأمة الإسلام التي تعاني من اتساع الهوة بينها وبين العالم الصناعي أحوج ما تكون إلى أن ترعى أطفالها المتفوقين ذهنياً، وأن توليهم درجة من العناية الخاصة حتى يساعدوها في المستقبل على تجاوز محنتها.

إن المستوى الرفيع من الذكاء قد ينطمس، أو تقل فاعليته إذا ما أهمل، أو لم يستغل، أو لم يستخدم، أو أسيء توجيهه. وتزداد قدرة الطفل في العادة على الإبداع في بداية السنة الثالثة، وتبلغ ذروتها في السنة الرابعة، ثم تنحدر فجأة حين يدخل المدرسة، وقد يكون ذلك بسبب أسلوب التعليم في المدارس، أو لأسباب لا نعرفها.

من علامات الطفل المتفوق ذهنياً :

- حب الاستطلاع وكثرة السؤال، وعدم القناعة بالأجوبة البسيطة.

- قوة الملاحظة وسرعة الفهم.
- قدرة واضحة على إدراك العلاقات بين الأمور والأعداد والكلمات.
- الانفتاح وتقبل الأفكار والمعلومات.
- التكيف مع المواقف والمتغيرات الجديدة.
- خيال نشط فعال بشكل غير عادي.
- حس مرهف لكل ما يراه أو يسمعه أو يلمسه.

وهذه العلامات يكون بعضها أشد ظهوراً عند طفل من بعضها الآخر. وهناك الآن مقاييس عديدة للتعرف على القدرات العقلية المختلفة، ومن السهل اليوم إجراء اختبار ذكاء للطفل لمعرفة التخصص العلمي الذي يناسب أفضل قدراته الذهنية.

الطفل الموهوب المبدع نعمة من الله – تعالى – إذ إنه يحتاج إلى جهد أقل في التعليم، وتكون نتائجه أعظم من الطفل العادي. وشكر هذه النعمة برعاية ذلك الطفل وتعليمه وتدريبه وإعطائه الفرصة كاملة لإظهار مواهبه. وإذا خلَّقناه بأخلاق المجتهدين، وصار مثابراً قادراً على الاستمرار في بذل الجهد منظماً مهتماً، فإن الثمار له ولأهله ولأمته تكون باهرة بحول الله. ويستطيع

الأبوان اللذان رزقا بطفل موهوب أن يساعداه على تنمية مواهبه وتوظيفها من خلال:

- تشجيع الطفل على أن يلعب بألعاب الذكاء وحل الألغاز وإدراك العلاقات بين الأشياء.

- تعليمه القراءة الجيدة للكتب ومساعدته على اختيار الكتب العلمية والفكرية التي ترقي مستواه العقلي.

- تعليمه تكرار المحاولة كلما أخفق في الوصول إلى نتيجة، فإنه كما تعلم المشي من خلال التعثر والوقوع، يصل إلى نتائج جيدة من خلال تكرار التجارب المختلفة.

- إبعاده عن الضوضاء والمشاجرات وأفلام العنف وتهيئة البيئة المناسبة للتفكير والاختراع.

- توفير كميات من المواد الأولية والأدوات التي تساعده على صنع بعض الأشياء.

- تعويده التحليل المنطقي والاستنتاج وتوقع حدوث بعض الأمور بناء على وجود معطيات ناجزة.

- تعليمه التفكير الموضوعي، ومساعدته على تقويم نفسه وتقويم الآخرين.

- إشعاره أننا مغتبطون بالنتائج التي توصل إليها، وأننا مساندون له في مشاريعه المستقبلية.

- تشجيعه على إقامة علاقات قوية مع بعض الشباب الصالح الموهوب المتفوق.

٦٩. العلاقة بين الإخوة

تسود العلاقة بين منسوبي الأسرة الواحدة سمة التفاعلية والتجاذب، فكما أن الأب يتأثر بخبرات الأم، والأم تتأثر بخبرات الأب، كذلك الأبناء الصغار يتأثرون ما لدى إخوتهم الكبار من خبرات، أو يتأذون من وجودهم بحسب طبيعة العلاقة السائدة. وأحب هنا أن أوضح النقاط التالية:

- يهتم الأبوان عادة بالطفل الكبير حيث يفوز بالقسط الأكبر من الرعاية والعناية. وهذا يجعله ينال من النضج والخبرة ما لا يناله إخوته من بعده. وهذا الاهتمام لا ينبغي أن يقتصر على تدليله وإعطائه كل ما يريد، وإنما يجب أن نلاحظ أن علينا أن نعده ليكون قدوة لإخوته؛ وقد كانت العرب تقول: «الأخ الأكبر أب».

فالصغار يتعلمون من أخيهم الكبير الكثير من الآداب، ويتلقفون الكثير من المفاهيم والأفكار؛ فإذا أعددنا الطفل الأول إعداداً جيداً كان عوناً لنا في تربية إخوته. وعلينا إلى جانب هذا أن نحذر من أن يصاب بعقدة الأخ الأكبر، حيث إن كثيراً من الأبناء الكبار ميالون إلى ممارسة سلطة الأب على إخوتهم الصغار، والإدلال بأنفسهم عليهم؛ مما يزيد الضغوط على الصغار. وليس بخافٍ أن من التقاليد الشائعة في معظم الأسر أن يسيطر الكبير على

الصغير والذكر على الأنثى. وهذه السيطرة كثيراً ما تتجاوز حدود الرعاية والتوجيه إلى شيء من العسف والظلم. ومسؤولية الأبوين أن يحولا دون حدوث ذلك.

- عيش الأبناء في منزل واحد كثيراً ما يؤدي إلى الخصام والشجار، وكثيراً ما يحدث ذلك بسبب الأشياء المشتركة بينهم؛ فقد تحتم الحالة الاقتصادية للأسرة اشتراك أربعة من الإخوة في غرفة واحدة، بل إن من المألوف في أحيان كثيرة أن يتعاور عدد من الإخوة على استخدام أداة واحدة، مثل بعض الأدوات المدرسية، وأحياناً الملابس والأحذية أو بعض الأغطية وما شابه ذلك. وهذا كله مما يؤجج الصراع والشجار بين الإخوة، فالخلطة دائماً مظنة للبغي والعدوان، كما قال - سبحانه - : ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]. ولهذا فإن علينا أن نحاول قدر الاستطاعة أن يكون لكل طفل أشياؤه الخاصة التي لا يشاركه فيها غيره، حتى نقلل من النزاع والشجار بين الأبناء إلى أدنى حد ممكن.

- كثيراً ما يشعر الأخ الرابع بالضيق الشديد من أخيه الثالث، والأخ الثالث من الأخ الثاني، والثاني من الأول، حيث يستمتع الكبير بالجديد،

ويتركه للأصغر منه. ويحدث هذا في أمرين: الملابس والكتب المدرسية، فحين يضيق الثوب على أحد الأطفال – نظراً لنموه المستمر – يُعطى للأخ الأصغر منه. والطفل الذي في الصف الثالث كثيراً ما يدرس في كتب أخيه الذي صار الآن في الصف الرابع. وقد قال لي أحد الأصدقاء مرة: إنه في دراسته من الابتدائية حتى أنهى الثانوية لم يستمتع بالقراءة في كتاب جديد لأن أخاه فلاناً كان يتقدم عليه بسنة في الدراسة، فكان يدرس في كتبه وهذه الأمور تحتاج إلى بعض الانتباه.

٧٠. الكأس الملأى

إذا استعرضنا تاريخ الحضارات وقفنا على حقيقة مهمة، هي أن الأعمال العظيمة والإنجازات الكبرى كانت تقوم دائماً على الفعل والمبادرة، وليس على الحظر والمنع. وهكذا التربية الجيدة تقوم على إغناء شخصية الطفل بالقيم والمبادئ والمفاهيم والعادات والسلوكات الصالحة والنافعة؛ على خلاف ما يفعله الكثير من الآباء والأمهات حين يقصّرون في تلقين أطفالهم ما ينبغي أن يلقنوهم إياه، فإذا أخطأ الطفل، أو أساء الأدب، أو قصر في أداء واجب أقاموا عليه النكير، ووبخوه... غير مدركين أن الزجر لا ينفع إلا بعد أن نكون وضحنا للطفل بشكل دائم وعلى نحو لا لبس فيه الصورة الصحيحة التي ينبغي أن يكون عليها.

إن الطبيعة تكره الفراغ، وحين نترك عقل الطفل وقلبه خاويين، فإن غيرنا سوف يلمؤهما، وسوف يتلقى ذلك الطفل بشوق وشغف. الطفل أشبه بالكأس فإذا ملأناها بما نريد قطعنا الطريق على ما لا نريد. وسيكون في إمكاننا ملء حياة الطفل من خلال الأمور الآتية:

١- التوجيه والإرشاد - بالأسلوب غير المباشر مهما كان ذلك ممكناً - بالإضافة إلى وضعه في ظروف إيجابية تملأ عليه وقته، وتشعره بأهمية ذاته، وذلك مثل اصطحابه إلى المسجد، وإلى بعض مجالس الكبار في بعض

الأحيان، ومثل تكليفه ببعض الأعمال الثقافية والخدمية، مثل تلخيص كتاب أو حفظ شيء أو تنظيف حديقة المنزل، أو أداء خدمة لإحدى العمات...

٢- إشباع حاجة الطفل إلى اللعب، فالبارئ - سبحانه - فطره على حب الحركة والعبث بالأشياء حتى ينمو جسمياً وعقلياً ونفسياً واجتماعياً. وعلى سبيل المثال فإن الطفل يتعلم عن طريق اللعب بعض القيم الاجتماعية، مثل العدل والصدق والأمانة وضبط النفس والروح الرياضية. كما أنه يتعلم النظام والانصياع للقانون؛ ولو جربنا أن نعطي لعبة لأربعة من الأطفال في سن الرابعة لوجدنا أنهم خلال دقائق يبدعون لتداول تلك اللعبة نظاماً معيناً يلزمون به أنفسهم.

إن اللعب بالنسبة إلى الأطفال ليس لهواً ولا شيئاً تُقطع به الأوقات، إنه أداة تربوية مهمة ووسيلة لطرد التوتر والكبت الذي يخبره الطفل نتيجة كثرة الأوامر والنواهي التي يتلقاها في كل حين. بالإضافة إلى أنه يطرد السأم والملل الذي يجده الطفل في مدرسته أثناء ساعات الدوام.

إن بعض الناس ملؤوا بيوتهم بالتحف وأشكال الزينة، ولم يفكروا في مكان لأطفالهم يلعبون فيه، فصار الخوف على تلك التحف مصدراً لتقييد حركة الطفل ومصدراً لكثير من الضغوط النفسية عليه!

٧١. المراهقة ليست أزمة

المراهقة مرحلة من مراحل عمر الإنسان، تمتد من سن الثالثة عشرة حتى الثامنة عشرة، وقد تمتد إلى سن العشرين. ولدينا اتجاهان متطرفان في شأنها:

اتجاه يرى أن الإسلام لا يعترف بالمراهقة، فما قبل البلوغ طفولة، وما بعده رجولة. ويستدل أصحاب هذا الاتجاه بأن الطفل إذا بلغ صار مكلفاً بجميع التكاليف الشرعية البدنية والمالية، كما أنه يتحمل المسؤولية كاملة عن الأعمال التي يقوم بها.

أما الاتجاه الثاني فيرى أهله أن مرحلة المراهقة مرحلة قائمة بذاتها، وهي مرحلة تتميز بالثورة والتمرد والقلق والصراع.

الاتجاه الأول ليس صحيحاً، حيث إن تحديد سن لإجراء الأحكام وتحميل التكاليف أمر لا بد منه، وقد حدد الإسلام ذلك بمرحلة البلوغ، لكن ذلك لا يعني عدم الاعتراف بوجود مرحلة عمرية انتقالية بين الطفولة والرجولة الحقة؛ فالمراهق يرغب في الخروج من طفولة لما يغادرها إلا جزئياً، كما يتشبث برجولة لم يملك إلا بعض سماتها وخصائصها. وقد ورد في الحديث الصحيح أن من جملة من يظلهم الله في ظل عرشه شاباً نشأ في عبادة الله، وذلك لأن شيئاً من الانحراف والخطأ قد يقع من الشاب نظراً لضعف

سيطرته على نفسه في كثير من الأحيان... ونظراً لعدم امتلاكه درجة كافية من الخبرة والنضج والرشد. وقد وردت نصوص أخرى يظاهر بعضها بعضاً في تأسيس هذا المعنى، منها ما ورد من قوله ﷺ: «عجب ربك لشاب ليس له صبوة» والحديث الذي يرويه ابن مسعود من قوله ﷺ: «الشباب شعبة من الجنون».

أما القول: إن المراهقة مرحلة عواصف هوجاء ومرحلة مستقلة عن غيرها، فهذا أيضاً غير صحيح، حيث إن الدعامات الأولى لجوانب النمو البدنية والعقلية والانفعالية قد بدأت في مرحلة الطفولة، ثم أخذت تسير نحو النضج في مرحلة المراهقة. ولذا فليس من الصواب افتراض خط فاصل بين مرحلة الطفولة والمراهقة، وبينها وبين مرحلة الشباب والرجولة.

وقد كان الاتجاه القديم لدى علماء النفس يرى في المراهقة حقبة تتميز بالتمرد والثورة: تمرد نحو الوالدين، وتمرد آخر موجه نحو المسؤولين في المدرسة. ويمكن أن نقول: إن السمعة السيئة التي توصم بها المراهقة عادة، كما يوصم بها المراهقون تعود إلى أمرين:

١- التغيرات السريعة التي تطرأ على الجوانب المختلفة لشخصية المراهق. وهذه التغيرات بسبب سرعتها توقع المتعاملين مع المراهق في شيء

من الإرباك، حيث يجدون نوعاً من الصعوبة في فهمه واستيعابه.

٢- ضعف خبرة كثير من القائمين على تربية المراهقين وتوجيههم، فيعاملونه بقسوة، ويضعون عليه القيود التي يضعونها على الأطفال الصغار متجاهلين التغيرات الجديدة التي طرأت على شخصيته، والتي تدفعه دفعاً نحو التحرر والاستقلال. وكثيراً ما رأينا مراهقين ومراهقات يمرون بمرحلة المراهقة دون أن يفقدوا توازنهم، أو يسببوا أية مشكلات لأحد بسبب التربية الجيدة والمعاملة المبصرة التي يتلقونها.

٧٢. سمات مرحلة المراهقة

قلنا: إن المراهقة مرحلة انتقالية بين الطفولة والرجولة (مع التوسع في الدلالة) ومن شأن المراحل الانتقالية الاضطراب وفقد التوازن واختلاط السمات والخصائص، وهذا ما نشاهده في مرحلة المراهقة.

أهم خصائص مرحلة المراهقة تتجلى في الآتي :

- من الناحية الجسمية تبدأ حالة من النمو السريع قبل سن البلوغ الجنسي بعام، وتستمر على هذا النحو مدة قد تصل إلى عامين أو أكثر، حيث تستطيل عظام الفتى، وتأخذ سمكاً جديداً سريعاً، وتأخذ العضلات في التكور والاشتداد. وتبدأ الغدد التناسلية في إفراز الهرمونات الخاصة بها، مما ينتج عنه ظهور الشعر في بعض أجزاء الجسم وتضخم الصوت بالنسبة إلى الذكور وظهور الثديين عند الإناث إلخ...

- يمتاز المراهق من الناحية الانفعالية والشعورية برهافة الإحساس، فهو يثور في كثير من الأحيان لأتفه الأسباب، كما هو شأن الأطفال الصغار. كما أن المراهق يجد نفسه في الفترة الأولى من المراهقة ضعيف التحكم في المظاهر الخارجية لحالته الانفعالية، حيث إنه إذا غضب أو أثير يصرخ ويرفس ويدفع الأشياء، ويلقي بأطباق الطعام وأكواب الماء على الأرض... ويبدو شيء من

هذا عند شعوره بالفرح، فهو يقوم بحركات لا تدل على الاتزان الانفعالي.

ويتعرض بعض المراهقين لحالات من اليأس والقنوط والحزن والآلام النفسية نتيجة ارتباكه الشخصي تجاه فورة النمو التي وجد نفسه فيها، ونتيجة تعامل من حوله معه في بعض الأحيان. وإلى جانب هذا تتميز هذه المرحلة بتكون بعض العواطف الشخصية المرتدة نحو الذات، مثل الاعتداد بالنفس والعناية بالملبس وبطريقة الكلام... حيث يبدأ المراهق يشعر بأنه لم يعد ذلك الطفل الذي ينفذ ما يؤمر به دون إبداء الرأي وحق المناقشة. إن الطفل يقول: أنت. والمراهق يقول: أنا. والراشد يقول: نحن.

- تمتاز مرحلة المراهقة من الناحية العقلية الفكرية بسرعة قدرة المراهق على التذكر والحفظ. ويلاحظ في هذا السياق أن المراهق يفضل التذكر القائم على الفهم، ويبذل في حفظ المادة المفهومة مجهوداً أقل من الجهد الذي يبذله في حفظ المادة غير المفهومة. ويلاحظ أن الطفل يركز تفكيره على الحوادث المتصلة بخبراته المباشرة وأموره الذاتية. أما المراهق فإنه يشغل نفسه بأمور غير مباشرة، ويميل إلى معالجة الأمور المعنوية غير المحسوسة، كما يبدي اهتماماً بالأحداث التي تقع في العالم البعيد عن محيطه.

وإلى جانب كل هذا يكون المراهق واسع الخيال، فعلى سبيل المثال حين

تميل أساليب الطفل في الكتابة إلى السذاجة والضحالة نجد أن المراهق يكتب بخيال خصب وروح شفيفة، ولذا فهو يطرز كتابته، ويزخرفها على نحو يثير الإعجاب.

إن خبرة الأبوين بهذه الأمور تجعلهما يدركان أن كثيراً مما يستنكرانه من تصرفات أبنائهم المراهقين هو أمر طبيعي تفرضه طبيعة المرحلة.

٧٣. المراهق والحياة الاجتماعية

إن السلوك الاجتماعي للفرد عملية تطورية مستمرة، فعلى حسب سعة البيئة التي يتعامل معها الطفل تتشكل طريقة سلوكه. وعند بدء مرحلة المراهقة يرتفع مستوى الوعي الجماعي، حيث يبدي المراهق حاجة ملحة للانتماء إلى جماعة، ولا سيما حين يلاقي من والديه شيئاً من الضغط والتوتر. وهو يلح على محيطه الاجتماعي بإصدار الموافقة الضمنية على تصرفاته، وعدم الاعتراض عليها. وبما أن هذا ليس ممكناً دائماً فإن المراهق يبحث عن مجموعة ضيقة ينتمي إليها، ويشيد بها، حيث يرى فيها النموذج الاجتماعي الأكثر ملاءمة لسنه ووضعه. وهو يخلص لتلك المجموعة أو (الشلة) إخلاصاً شديداً، ويرى أنها في آرائها وسلوكياتها، تقدم له دعماً خفياً ومظاهرة قوية في موقفه تجاه سلطة والديه أو المدرسة.

من الملاحظ على السلوك الاجتماعي للمراهق وجود رغبة شديدة لديه في أن يكون له مركز معترف به بين أفراد أسرته ومجموعته وأبناء مدرسته وحيه.

ومن أجل الاعتراف به فإنه يميل دائماً إلى القيام بأعمال تلفت النظر إليه. ووسائله في ذلك متعددة، فهو قد يلبس الثياب ذات الألوان الزاهية، أو المخيطة على أحدث طراز. وقد تكون وسيلته نوعاً من التصنع في الكلام أو

الضحك أو المشي. وقد يسعى إلى الاعتراف به عن طريق إقحام نفسه في مناقشات هي فوق مستواه، كما أنه قد يجادل في أمور قد تكون بعيدة كل البعد عن خبراته ومعارفه. وقد يجد المراهق أن أفضل طريقة لترسيخ مكانته الاجتماعية هو تقديم بعض الخدمات والإصلاحات في المنزل أو في محيط أسرته المختارة. ويصاب بالتوتر والإحباط إذا لم يتم الترحيب بتلك الخدمات، ويفسّر ذلك على أنه تحطيم لعبقريته.

ومما يلاحظ على سلوك المراهق ميله إلى التحرر، ورغبته في مقاومة أي سلطة تمارس عليه؛ فهو يحلم في أن يجد نفسه في عالم خارج بيئته المنزلية، عالم مليء بالأصدقاء والزملاء والحرية والاستقلال، والتخلص من التبعية الطفلية ويجد أمامه العائلة والمدرسة عائقين في سبيل ذلك؛ ولهذا فإنه يتمرد ويحتج ويغضب ويهدد بالهرب من المنزل أو إيجاد عمل وترك الأسرة، أو التطوع في سلك الجندية... وهذا لا يأخذ طابعاً واحداً، ولا تكون شدته على درجة واحدة، ولكن شيئاً منه يخبره كثير من الأسر.

ينزع المراهق إلى المثالية في بعض الأمور لضعف خبراته العملية، فهو لا يعرف دائماً الحدود الفاصلة بين ما هو واجب وما هو ممكن. وهذا النزوع يولد لديه نوعاً من النمو المشوه في ملكة النقد، والاعتراض على تصرفات

الآخرين مهما كان شأنهم ووضعهم. وطالما أبدى المراهقون الاعتراضات على تصرفات الأبوين والأقرباء والمدرسين والوضعية العامة للمجتمع؛ فهو قد يعترض على ملابس الأبوين أو أثاث المنزل أو طريقة المدرسين في الكلام والشرح. إنه لقلة خبرته يتخذ من بعض المظاهر والأشياء نماذج يعجب بها، ويريد من الآخرين أن يعجبوا بها ويتمثلوها.

٧٤. التعامل مع المراهق

التغيرات الفطرية التي تطرأ على شخصية الأبناء في مرحلة المراهقة تستهدف إعدادهم للدخول في مرحلة الرجولة، وسوف نرتاح كثيراً إذا أدركنا طبيعة تلك التغيرات، وفسرناها تفسيراً إيجابياً؛ كما أننا نستطيع أن نساعد أبناءنا على عبور تلك المرحلة بسلام وأمان، بل أن يستفيدوا منها مما يجعل تحملهم لمسؤولية مرحلة الرجولة أكثر سلاسة وكفاءة. إن مشكلتنا معاشر المربين أننا كثيراً ما نجد أنفسنا عاجزين عن مواكبة التغيرات السريعة التي تطرأ على شخصيات أبنائنا في مرحلة المراهقة، فنعاملهم على أنهم أطفال غير قادرين على تدبر أمورهم، كما نسيء فهمهم في بعض الأحيان، فنظن أنهم يناصبوننا العداء، أو أنهم فقدوا ولاءهم لأسرهم، وباتوا يبحثون عن استقلال تام عنا. إن المراهق يبحث عن الاستقلال والحرية والاعتماد على النفس، لكنه في الوقت نفسه يشعر بالحاجة إلى رعاية أبوية، ويحرص على ألا يُحرم من توجيههم. ولديّ هنا الملاحظات التالية:

- لدينا وسائل عديدة نستطيع من خلالها تلبية حاجة المراهق إلى الاستقلال، ونصونه بالتالي من آفتي التمرد والإحباط، ومن تلك الوسائل تخصيص مبلغ شهري لمصروفه الشخصي، وإتاحة فرصة كسب المال له من

خلال القيام ببعض الأعمال المناسبة، عند رغبته في ذلك. وكذلك منحه الحرية في اختيار ملابسه وشرائها ضمن إطار المعقول والمعروف، إلى جانب تكليفه بشراء بعض حاجات المنزل، ووضع مصروف الطريق في السفر معه ليشتري ما نحتاجه... المهم أن يشعر المراهق أننا مدركون للقدرات الجدية التي اكتسبها، وأن يشعر أن ثقتنا به تتصاعد كلما شب عن الطوق ودنا من مرحلة الرجولة.

- التوازن في التعامل مع المراهقين يظل مطلباً أساسياً في أمور التربية؛ ومن الملاحظ أن بعض الآباء يتعامل مع ابنه المراهق بمنتهى القسوة، وينظر إليه على أنه مصدر لشرور لا تنتهي، وأنه يسبب له الحرج والعار... كما أن بعضهم يتسامحون مع أبنائهم المراهقين إلى حد الإهمال، فلا يعرفون شيئاً عن أنشطتهم ولا عن علاقاتهم ولا أصدقائهم، مما يؤدي إلى وقوع المراهق في مشكلات مأساوية.

وهناك الأب الذي يوفر الحماية الزائدة للمراهق، فيجعله يتصرف وفق قواعد صارمة، ويشك في كل تصرف من تصرفاته، ولا يفوض له أي أمر من أموره الشخصية أو أمور الأسرة... إنه يعامله على أنه ما زال طفلاً في سنيه الأولى. وكل هذا من الخطأ البالغ. والصواب يقع في المساحة الفاصلة بين هذه

النماذج: حزم في غير شدة، وتسامح من غير غفلة، وثقة من غير إفراط.

- لا بد من أن يحاول الأب معاملة ابنه على أنه صديق له، وأن تحاول الأم معاملة ابنتها على أنها صديقة لها، فيتشجع كل منهما على بث همومه وتطلعاته وعلى الحديث عن آرائه العامة في القضايا المختلفة، فتسود الصراحة، ويلقي المراهق عن كاهله كثيراً من الأعباء التي تقض مضجعه. إن المراهق كثيراً ما ينطوي على نفسه، وكثيراً ما يستحي من التحدث عن بعض الأمور، ومن واجبنا أن نشجعه على الانفتاح والبوح، وأن نقف موقف الحكيم المتفهم لما يصارحنا به.

٧٥. ليست التربية غُرماً دون غُنم

تربيتنا لأولادنا وإنفاقنا عليهم وخدمتنا لهم حتى يبلغوا أشدهم تكليف لنا من الله – تعالى – حتى يبقى النوع الإنساني، وحتى يمكن استمرار التواصل الثقافي بين الأجيال. وهذا التكليف يحملنا مسؤولية خاصة، سوف نسأل عنها أمام الله – تعالى – وعلينا أن ننهض بهذه المسؤولية على قدر الاستطاعة؛ حتى تبرأ الذمة، وننال المثوبة العظيمة. إن الأب هو المشرف العام على الأسرة، وله دوره الخاص في التربية الأسرية، حيث يمثل – عادة – العنصر الأكثر وعياً والأكثر ثقافة والأكثر أهلية وقدرة على إدارة شؤون الأسرة والقيام بالكثير من المهمات التربوية. وفي الحديث الشريف: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته. والأمير راع. والرجل راع على أهل بيته. والمرأة راعية في بيت زوجها وولده، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

هذه المسؤولية عن الرعاية والتربية ليست مجانية، بل لها أعظم التقدير في الشرع الحنيف؛ فالأبناء مطالبون شرعاً بالتأدب مع أبويهم وهم صغار، والإحسان إليهم حين يكبرون، ويتمكنون من معاونة أبويهم على مشاق العيش، ولا سيما عندما يدركهما الهرم، والآيات في ذلك مشهورة. ومهما فعل الأبناء فلن يوفوا آباءهم وأمهاتهم حقوقهم، وفي هذا يقول ﷺ: «لا يجزي

ولد والداً إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه». وللأم مكانة خاصة في البر لكثرة ما تعانيه في الحمل والولادة والتربية والخدمة، وقد سأل أحد الصحابة رسول الله ﷺ: من أحق الناس بحسن الصحبة؟ فقال: «أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك، ثم أدناك فأدناك». وإذا قامت المرأة على رعاية أطفالها وتربيتهم بعد وفاة زوجها كان لها من المثوبة والإكرام ما لا يناله كثير من المسلمين، كما في قوله ﷺ: «كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة» وأشار الراوي بالسبابة والوسطى.

إن المال الذي ينفق على العيال والأولاد يعد من أحسن الصدقات إذا احتسب رب البيت فيه، وأخلص النية، وفي هذا يقول – عليه الصلاة والسلام – : «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة (أي تخليص عبد من الرق)، ودينار تصدقت به، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك». ولا ننسى أن للآباء والأمهات نصيباً من أجور الأعمال الصالحة التي يعملها أبناؤهم لأنهم ربوهم ونشّؤوهم ودلوهم وأعانوهم عليها، وفي الحديث: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله». ولتربية البنات والإحسان إليهن مزية خاصة لكونهن العنصر الأضعف، فقد قال – عليه

الصلاة والسلام - : «من عال جاريتين (أي بنتين) حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين» وضم أصابعه.

وما زال الكرام الأخيار من هذه الأمة يتقربون إلى الله - تعالى - بإكرام البنات واسترضائهن على خلاف ما يفعله الجاهلون من إيثار الذكور على الإناث، وامتهان البنات، وحرمانهن من الميراث؛ نعوذ بالله من الضلالة بعد الهدى.

***

ولا يخفى بعد هذا وذاك أننا جنحنا إلى شيء من المثالية في هذا الكتاب، وربما أكون قد حمّلت الأبوين من أعباء التربية الشيء الكثير ولكن هذه هي طبائع الأمور، حيث نرغب دائماً أن نرسم حدود الصورة المثلى، لنحاول مقاربتها على قدر الوسع والإمكان، والمسألة كما أوضحت مسألة تقرب إلى الله - تعالى - فمن استطاع أن يتقرب أكثر فليفعل، فالأجر عظيم والنتائج باهرة - إن شاء الله - ولكل مجتهد من اجتهاده نصيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين؛ وصلى الله وسلم على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المراجع

١- الآباء وتربية الأبناء، تأليف محمد عبد الرحيم عدس، عمان – دار الفكر، ط أولى، عام ١٤١٦هـ.

٢- تربية المراهق في رحاب الإسلام، تأليف محمد الناصر وخولة درويش، السعودية – رمادي للنشر، ط أولى، عام ١٤١٧هـ.

٣- ٣٦٥ خطوة للنجاح، إعداد قسم الترجمة بالدار الدولية للنشر، القاهرة، ط أولى، عام ١٩٩٦م.

٤- حول التربية والتعليم، تأليف د. عبد الكريم بكار، الرياض – دار المسلم، ط أولى، عام ١٤٢٠هـ.

٥- سياسات تربوية خاطئة، تأليف محمد دياس، بيروت – دار ابن حزم، ط أولى، عام ١٤٢٠هـ.

٦- الطفل في مرحلة الحضانة، تأليف د. صادق بقطر، القاهرة – مكتبة الأنجلو المصرية، ط أولى، عام ١٩٥٥م.

٧- عصرنا والعيش في زمانه الصعب، د. عبد الكريم بكار، دمشق – دار القلم، ط أولى، عام ١٤٢١.

٨- فن تربية الأولاد في الإسلام، تأليف محمد سعيد مرسي، القاهرة – دار التوزيع الإسلامية، ط أولى، عام ١٤١٨هـ.

٩- المواقف الأخلاقية، تأليف روجيه ميل، ترجمة د. عادل العوا، بيروت – عويدات، ط أولى، ١٤١٨هـ.

١٠- موسوعة العناية بالطفل، تأليف د. بنجامين سبوك، ترجمة عدنان كيالي وإيلي لاوند. بيروت – المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عام ١٩٧٢م.

١١- منهاج الطفل المسلم، تأليف أحمد سليمان. السعودية، ط أولى، عام ١٤١٩هـ.

١٢- هكذا ربانا جدي علي الطنطاوي، تأليف عابدة المؤيد العظم، جدة – دار المنارة، ط أولى، عام ١٤١٩هـ.